ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٩–١٠ ، السنـــــة : ٥٠

رمضان – شوال ١٤٤٧هـ ، مارس – أبريل ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ١٢٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- تأملات في شهر رمضان — التحرير — ٣

كلمة العدد

- علاقة شهر رمضان بالقرآن الكريم — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠

دراسات إسلامية

- حول إعجاز القرآن الكريم — الدكتور محمد أحمد الغمراوي — ٢٢
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٣١
- الصوم — فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السباعي عامر — ٤٢
- رمضان: شهر النُّورِ والتَّجْدِيدِ والإيمَانِ — الدكتور محمود مصطفى حلمي — ٤٩
- الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٥٤
- أم المؤمنين خديجةُ بِنتُ خُوَيْلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا — الدكتور أحمد خليل جمعة — ٦٣
- رسائل العلامة أنور شاه الكشميري باللغة العربية: دراسة وصفية — رئيس التحرير — ٧٢

أنباء الجامعة

- اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية تعقد دورة هامة في رحاب الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الطالب: عبد الله نظامي الأعظمي — ٩٣

إشراقة

- من تعلم تألم — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ١٠٠

كلمة المحرر

تأملات في شهر رمضان

يدخل على الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مع هذا الشهر شهرُ رمضان المبارك، وهم بحاجة شديدة إلى أن يسألوا أنفسهم: كيف يقضون أيام هذا الشهر الفضيل؟ وكيف يبيتون لياليه؟ وهل وضعوا برامج وأعمالًا له؟ وهل حدّدوا أهداف هذا الصوم؟ وماذا يريدون أن يجنوا من هذا الشهر المبارك؟ وهذا السؤال طبيعي؛ فإن الناس إذا أراد أحدهم أن يبدأ مشروعًا أو عملا من أعمال الدنيا أوتجارة من تجاراتها، وضع له خطة و رسم له الطريق إلى تحقيق أهدافه بعد أن قام بدراسة جدوى هذا العمل؟ ويجتمع الناس في اجتماع ذي بال وحيوية فيضعون له برامج عمل، وجدول أعمال وأجندة، فهذا هو العرف السائد في الدنيا، وهذا هو الأصل في الشؤون الدنيوية، وهذا هو المنهج المتبع عند أهلها؟

فعلى المسلم – وهو يصوم هذا الشهر المبارك– أن يسأل نفسه: هل التقوى التي هي من أهم أهداف الصوم تحققت في حياته؟ هل تغيرت حياته عما كانت عليه قبل دخول هذا الشهر؟ حيث كان يعيش حياته في غفلة شنيعة عن الله تعالى وأحكامه، فكان يتبع نفسه هواها: تطلب نفسه الطعام، فيطعم، وتشتهي الشراب فيعب، وترغب نفسه في اللهو واللعب فيلهو وينصرف إليه، فاستأسدت نفسه وطغت، وتعدت، فهل كبح جماحها، ومنعها مقومات الحياة من طعام شهي وشراب سائغ؟ وهل وقفها عند حدود الشريعة الغراء؟

ولينظر أحدنا هل جنى في هذا الشهر المبارك شيئًا من ثمرات الصوم وفوائده وبركاته، التي تتمثل في تطهير النفس وتزكية الروح، وتقويم الأخلاق، وتهذيب السلوك البشري، وتربية الإرادة الحرة، وتعزيز العزيمة الصادقة، والشعور بمراقبة الله عزوجل في جلواته وخلواته، وغدواته وروحاته، وسره وعلنه، طمعًا في رحمة ربه، ورجاءً لثوابه، ومخافةً من عذابه؛ فإن الصوم سر بينه وبين ربه لايطلع عليه غيره، ومن هنا نسبه الله تعالى إلى نفسه فقال: «الصوم لي وأنا أجزي به».

وليفكر أحدنا حين يدخل عليه أول ليلة من ليالي رمضان المبارك هل تعرض لرحمة الله وتعالى ومغفرته ورضوانه وعتقه من النار، «إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنان، فلم يغلق منها باب، ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار».

فلابد أن يكون لأحدنا من وقفة في كل ليلة من ليالي هذا الشهر الفضيل: هل أنا الليلةَ ممن أعتقت رقبته من النار.؟ وكيف أفعل إذا لم أكن منهم؟ وكيف أتدارك وأتلافى ما فاتني من رحمة ومغفرة؟ اللّهم، لا تدع لأحد منا ذنبًا إلا غفرته، ولاهمًّا إلا فرجته، ولا دينًا إلا قضيته، ويسرته يا أرحم الراحمين. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة صباحًا من يوم /٥/١٤٤٧هـ= /١١/٢٠٢٥م)

علاقة شهر رمضان بالقرآن الكريم

العلاقة بين القرآن الكريم وشهر رمضان علاقة وثيقة متينة لأقصى الحدود والغايات، وتتجلى هذه العلاقة في عدة جوانب، منها أن القرآن الكريم نزل في هذا الشهر الفضيل، يقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

يقول الإمام ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا هذا القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وهي ليلة الحكم التي يقضي الله فيها قضاء السنة».

وقال ابن عطية في تفسير الآية: «واختلف في إنزال القرآن فيه: فقال الضحاك: أنزل في فرضه وتعظيمه والحض عليه، وقيل: بدىء بنزوله فيه على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال ابن عباس فيما يؤثر: أنزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً ليلة أربع وعشرين من رمضان، ثم كان جبريل ينزله رسلًا رسلًا في الأوامر والنواهي والأسباب، وروى واثلة بن الأسقع عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال:نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، والتوراة لست مضين منه، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين».

وقال العلامة أشرف عليه التهانوي- المعروف في هذه الديار بحكيم الأمة (١٢٨٠-١٣٦٢هـ/ ١٨٦٣-١٩٤٣م)- في تفسيره الشهير بـ(بيان القرآن) منوهًا إلى هذه العلاقة بينهما: «تنص آية قرآنية أخرى على أن الله تعالى نزل القرآن الكريم في ليلة القدر، وفي هذه الآية نصت على أنه نزله في شهر رمضان ؟ ولا إشكال فيه؛ لأن هذه الليلة من رمضان. فالآيتان متوافقتان معنىً. فإن قيل: إن القرآن الكريم نزل منجمًا في سنوات عديدة على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فما معنى إنزاله في شهر رمضان أو في ليلة القدر؟ وقد أشرت إلى الجواب عن هذه

الوسوسة في الترجمة أي أنه نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعةً واحدةً في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم نزل من السماء الدنيا إلى الدنيا منجمًا في سنوات عديدة، فلا تعارض بينهما. وحكى صاحب روح المعاني عن ابن عباس وابن جبير والحسن رضي الله عنهم قولهم: إنه نزل جملةً إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة. وقد شرحته آنفًا. وهو معنى ما روى أحمد والطبراني عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين». كذا في روح المعاني، والله أعلم».

ويقول أيضًا: «وخصيصة أخرى، هي أن النبي ﷺ كان يدارس جبرئيل القرآن في شهر رمضان، ونص الفقهاء على أنه يسن ختم القرآن مرةً واحدةً في التراويح. وهذه خصيصة تشريعية، وهناك خصيصة أخرى تكوينية، هي أن المرء يميل قلبه تلقائيًا إلى قراءة القرآن الكريم في هذا الشهر، و لذا أفضل قراءة القرآن الكريم في رمضان، والإكثار منها على الذكر، ولابد من ذكر الله تعالى، ولكن ليكن حظ قراءة القرآن في هذا الشهر أكثر من ذكر الله تعالى. فإن ذكر الله تعالى يستوي في الأشهر الاثني عشر، وأما تلاوة القرآن الكريم في رمضان المبارك فإنها تجلب بركات خاصة من الله تعالى، وذلك كما يطلب الإكثار من الطواف بالبيت لمن كان في المسجد الحرام أكثر بإزاء العبادات الأخرى. فتلاوة القرآن الكريم من عبادات هذا الشهر، ويجب أداؤها بصورتها وروحها أي بالإقبال الكلي إليها».

وقال العلامة محمد الطاهر في تفسير الآية: «والمراد بإنزال القرآن ابتداء إنزاله على النبي ﷺ، فإن فيه ابتداء النزول من عام واحد وأربعين من الفيل، فعبر عن إنزال أوله باسم جميعه؛ لأن ذلك القدر المنزل مقدر إلحاق تكملته به كما جاء في كثير من الآيات مثل قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]، وذلك قبل إكمال نزوله، فيشمل كل ما يلحق به من بعد، وقد تقدم عند قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى الذي أنزل فيه أنزل في مثله؛ لأن الشهر الذي أنزل فيه القرآن قد انقضى قبل نزول آية الصوم بعدة سنين، فإن صيام رمضان فرض من السنة الثانية للهجرة، فبين فرض الصيام والشهر الذي أنزل فيه القرآن حقيقة عدة سنين، فيتعين بالقرينة أن المراد أنزل في مثله أي في نظيره من عام آخر. فقد جعل الله للمواقيت المحدودة اعتبارًا يشبه اعتبار الشيء الواحد المتجدد، وإنما هذا اعتبار

للتـذكير بالأيـام العظيمـة المقـدار كـما قـال تعـالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم:٥]، فخلع الله على المواقيت التي قارنها شيء عظيم في الفضل أن جعل لتلك المواقيت فضلا مستمرًا تنويها بكونها تذكرة لأمر عظيم، ولعل هذا هو الذي جعل الله لأجله سنة الهدي في الحج؛ لأن في مثل ذلك الوقت ابتلى الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل وأظهر عزم إبراهيم وطاعته ربه ... وهذا يدل على أن مراد الله تعالى من الأمة صوم ثلاثين يومًا متتابعة مضبوطة المبدأ والنهاية متحدة لجميع المسلمين. ولما كان ذلك هو المراد وقت بشهر معين، وجعل قمريًّا لسهولة ضبط بدئه ونهايته برؤية الهلال والتقدير، واختير شهر رمضان من بين الأشهر؛ لأنه قد شرف بنزول القرآن فيه، فإن نزول القرآن لما كان لقصد تنزيه الأمة وهداها ناسب أن يكون ما به تطهير النفوس والتقرب من الحالة الملكية واقعًا فيه، والأغلب على ظني أن النبي ﷺ كان يصوم أيام تحنثه في غار حراء قبل أن ينزل عليه الوحي إلهامًا من الله تعالى وتلقينا لبقية من الملة الحنيفية، فلما أنزل عليه الوحي في شهر رمضان أمر الله الأمة الإسلامية بالصوم في ذلك الشهر، روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهر رمضان»، وقال ابن سعد: جاءه الوحي وهو في غار حراء يوم الاثنين لسبع عشرة حلت من رمضان».

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله (١٣١٧-١٣٩٤هـ/ ١٩٠٠-١٩٧٤م) تحت عنوان (المناسبة بين نزول القرآن وصيام رمضان) منوهًا بهذه العلاقة: «والمناسبة بين نزول القرآن وصيام رمضان أن الله تعالى اختار هذا الشهر لإنزال القرآن الكريم، وغير خافٍ أن ما يحمله كلام الله المعجز من الأنوار والتجليات والخيرات والبركات لانهاية له ولا غاية. ورغم أن محبيه في حرمان في الدنيا من رؤيته سبحانه وتعالى، لكن في كلامه لهم عزاء؛ فإن ستار الكلام يتجلى فيه صاحبه. وفي الحديث النبوي: «أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان». فشهر رمضان شهر مبارك عجيب جدًّا، نزل فيه كلام الله تعالى، نزل فيه كتابه، وهو نعمة عظمى ومنة كبرى. فكان من شكر هذه النعمة العظمى أن تُفرض فيه عبادة خاصة، لها مناسبة مع الكلام الإلهي، وهي الصوم الذي يقرب الصائم - لإمساكه عن الطعام والشراب ولتركه الملذات- إلى الملائكة، ويورث

القلـبَ القـدرة عـلى تقبـل أسرار كـلام الله تعـالى و تجلياتـه، فـإن زوال الكـدورات البـشرية والنفـسانية، وذهـاب الظلمات، وجلاء القلب وصيقله مما يورث الـصيام ترياقًـا لامثيـل لـه، وإكـسيرًا عـديم النظـير، ولايقدر على الاستفادة من مأدبة الأنوار والتجليات حق الاستفادة إلا من طوى هذه المأدبة الحسية ولو لأيام معدودات... ومن أجل ذلك لما توجه موسى عليه السلام إلى الطور للقاء التوراة صام أربعين ليلة، وقضى عيسى عليه السلام في الفلاة صائمًا أربعين يومًا، ثم أعطاه الله تعالى الإنجيل، واعتكف وصام النبي ﷺ في حراء، فأنزل الله تعالى عليه في الغار نفسه القرآن الكريم، وأضفى عليه النبوة والرسالة، فدل على أن الصوم على مناسبة خاصة مع كلام الله تعالى، ففرض صيام نهار هذا الشهر المبارك وسن قيام ليله، كما سنَّ اعتكاف العشر الأخير منه، وجاءت العناية الخاصة بتلاوة القرآن الكريم ليلًا ونهارًا. وفي الحديث: أن رسول الله -ﷺ- كان يدارس جبرئيل القرآن مرة في كل عام، فلما كان العام الذي توفي فيه دارسه مرتين. وهذا الشهر- وإن كان كله مباركًا- لكن خلاصته وروحه هي ليلة القدر، ففيها نزل القرآن الكريم، وينزل فيها الملائكة نزولا خاصًا ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الفجر:٥]...

وقال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني: فلهذا الشّهر المبارك مناسبة تامّة للقرآن المجيد من جهة كون القرآن جامعًا لجميع الكمالات وهذا الشّهر لجميع الخيرات الّتي هي نتائج تلك الكمالات وثمراتها، وهذه المناسبة كانت باعثة على نزول القرآن في هذا الشّهر قال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ وليلة القدر في هذا الشّهر خلاصة هذا الشّهر وزبدته، فهو بمنزلة اللّبّ. وهذا الشّهر بمنزلة قشره، فمن مرّ عليه هذا الشّهر، وهو متلبّس بالجمعيّة، وصار محظوظًا من خيراته وبركاته، يكون موفّقًا لجمعيّة تمام السّنة، ويفوز بالخيرات والبركات فيها، وفّقنا الله سبحانه للخيرات و البركات في مثل هذا الشّهر المبارك، ورزقنا النّصيب الأعظم. قال حضرة خاتم الرّسالة عليه الصّلاة والسّلام والتّحيّة: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمرة؛ فإنّه بركة»، وأفطر النّبيّ ﷺ بالتّمر، وكون التّمر بركة؛ لأنّ شجرتها النّخلة، ومخلوقة على عنوان الجامعيّة وصفات أعدليّة كالإنسان، ولهذا سمّى النّبيّ ﷺ النّخلة عمّة بني آدم؛ لكونها مخلوقة من بقيّة طينة آدم عليه السّلام، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «أكرموا عمّتكم النّخلة؛ فإنّها خلقت من بقيّة طينة آدم عليه السّلام»، وتسميته بركة يمكن أن تكون باعتبار هذه الجامعيّة، فالإفطار بثمرتها

الّتي هي التّمرة تكون جزءًا من المفطر بها وحقيقتها الجامعيّة تكون جزءًا من حقيقته باعتبار تلك الجزئيّة، ويكون آكلها جامعًا لكمالات غير متناهية مندرجة في حقيقة التّمر الجامعة بذلك الاعتبار، وهذا المعنى وإن كان حاصلًا في أكله مطلقًا، ولكنّه وقت الإفطار الّذي هو أوان خلوّ الصّائم عن الشّهوات المانعة واللّذّات الفانية يكون تأثيره أزيد، وظهور هذا المعنى فيه يكون أتمّ وأكمل، وما قال النّبيّ ﷺ: نعم سحور المرء التّمر يمكن أن يكون ذلك باعتبار أنّ في غذائه الّذي يصير جزءًا من الآكل تكميل حقيقته لا تكميل حقيقة الغذاء، ولمّا كان هذا المعنى مفقودًا وقت الصّوم رغّب في التّسحّر بالتّمر تلافيًا لهذا المعنى».

ويقول المفتي محمد شفيع رحمه الله (١٣١٤-١٣٩٦هـ/١٨٩٧-١٩٧٦م) مشيرًا إلى هذه العلاقة بين القرآن الكريم وشهر رمضان في تفسير هذه الآية: «هذه الآية تجمع بين بيان الآية السابقة المجملة، والتنويه بأعظم فضائل شهر رمضان. وأما البيان فهو أن الآية السابقة تضمنت قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فشرحتها هذه الآية الكريمة، وهو أن هذه الأيام المعدودات شهر رمضان المبارك. وأما ذكر فضله، فهو أن الله تعالى اختار هذا الشهر للوحي وإنزال كتبه السماوية، فنزل القرآن الكريم في هذا الشهر، وروى الإمام أحمد في مسنده [١٦٩٨٤] عن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، و أنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان». ونزلت الكتب السماوية في الأيام المشار إليها في الحديث كاملةً، وامتاز القرآن الكريم عنها بأنه نزل جملة في ليلة من ليالي رمضان من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل على محمد ﷺ منجمًا في ثلاث وعشرين سنة. وليلة رمضان التي نزل فيها القرآن الكريم هي ليلة القدر كما نص القرآن الكريم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ونص الحديث السابق على أن القرآن الكريم نزل لأربع وعشرين خلت من رمضان، وذهب الحسن البصري إلى أن ليلة أربع وعشرين من رمضان هي ليلة القدر، فوافق الحديث الآية القرآنية، وبغض الطرف عن هذه الموافقة، فإن القرآن الكريم أراد بها ليلة القدر أيا كانت».

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب

الإلهية تنزل فيه على الأنبياء».

ويقول الشيخ محمد محمد بن أحمد بن مصطفى ابن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى:١٣٩٤هـ) في تفسير هذه الآية: «وإن اختصاص شهر رمضان بالصوم؛ لأنه نزل فيه القرآن فيه تذكير بمبدأ الوحي، واحتفال بأكبر خير نزل في الأرض وهو بعث النبي -ﷺ-، فإنه نور الأرض وإشراقها، والاحتفال به احتفال بنعمة الهداية، ونعمة الخروج من الظلمات إلى النور، ونعمة إرسال نبي الرحمة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). ولقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير ما خلاصته: إنه في شهر رمضان نزلت هداية الله تعالى من السماء إلى الأرض، فناسب ذلك أن يفرض فيه الصوم؛ لأن الصوم فيما فيه من إمساك عن شهوتي البطن والفرج، وفيه علو من الأرض إلى السماء بالتجرد الروحي الذي كان في الصوم، ولقد قال النبي -ﷺ- في هذا الشهر الذي هو احتفال بذكرى البعث المحمدي: «إن الله تبارك وتعالى فرض عليكم صيام رمضان، وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه احتسابًا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» [سنن ابن ماجه: ١٣٢٨].

ولننظر في الموضوع من ناحية أخرى، وهي أن الاستفادة من القرآن الكريم تتطلب أمورا وآدابًا لها، أولها: الطهارة الجسدية الظاهرة، فيقول الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، فلايمس المصحف إلا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأصغر. وثانيها: الطهارة الروحية والخلقية؛ فإذا كان مس المصحف على غير طهارة ظاهرة ممنوعًا عنه فإن الاستفادة من توجيهاته وأحكامه وبركاته وروحه لن تتأتى إلا إذا تزكت الروح، ونفذت التقوى إلى قلب المرء. والوضوء والغسل مما يوفر الطهارة الجسدية، فإن الصوم يعود المرء الأخلاق الكريمة، وينفخ فيه روح الصبر والمواساة والشعور بألم غيره، والسعي على الأرملة والمسكين، ومسح دموع الأيتام. فكان شهر رمضان شهر القرآن، وكان الصوم باب القرآن الكريم.

وإذا كان القرآن الكريم ينبه المؤمن على عقوبة الذنوب والآثام والمعاصي من الكذب والسرقة والنميمة والغيبة، ويحذر منها؛ فإن الصوم يربي المرء كيف يتقي هذه المعاصي والآثام، وكيف يهيمن على النفس الأمارة بالسوء، ويجنبها ما يجلب سخط الله تعالى عليه.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأنفال ١٢-٤١)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

ولك أن تدرك أهمية غزوة بدر أن الشيطان اللعين بدوره تمثل في صورة رئيس كنانة الأكبر سراقة بن مالك المدلجي، وجاء أبا سفيان وشجع المشركين كثيرًا بأنه لايغلبكم اليوم أحد، فإني أنا و قبيلتي كلها معكم، وكان تحت لواء إبليس جيش كبير من الشياطين، وستأتي هذه القصة لاحقًا. فأرسل الله تعالى لِعون المسلمين كتيبة ملكية بقيادة جبرئيل وميكائيل، وقال لهم: إني معكم. وإذا كان الشياطين يشجعون الكفرة متمثلين في البشر، وهم على أهبة للقتال بجانبهم، ويوسوسون إلى قلوبهم ويثيرون الخوف فيهم، فأيها الملائكة، ثبتوا قلوب المسلمين المظلومين الضعفاء. و تشجعونهم في جانب، وفي جانب آخر سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، واضربوا أنتم بجانب المسلمين أعناق الكفرة، واضربوا منهم كل بنان. فإن الكفرة من الجن والإنس قد بارزوا اليوم الله تعالى، فليعلموا كيف تنزل العقوبة على أعداء الله تعالى. وما في الآخرة من العقوبة هو الأصل، ولكن لينظروا نموذجًا منها في الدنيا أيضًا، وليذوقوا العذاب الإلهي. وفي الأحاديث كانوا يرون الملائكة بأعينهم في بدر، ويميزون الكفار الذين يقتلهم الملائكة من الكفار الذين قتِلوا بأيدي البشر. فهذا مثال أراهم الله تعالى على أن شياطين الإنس والجن إذا اجتمعوا هذا الاجتماع غير العادي على مواجهة الحق، فإن الله تعالى يمد أهل الحق والمقبولين من عباده بهذا

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

الوجه غير العادي. وإن كان الفتح والهزيمة؛ بل كل صغير وكبير لايتحقق إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته. فهو في غنًى عن الملائكة وعن البشر. ولو أراد أن يستخدم الملائكة فإنه قد أعطاهم قوة بحيث إن أحدهم يقدر على أن يقلب القرى الكبيرة. وإنما الغرض هنا الجواب عن السعي غير العادي من الشياطين على سبيل التنبيه في عالم التكليف والأسباب هذا، ليس إلا.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥

الفرار من الزحف - أي الفرار من الجهاد وتولية الكفار الأدبار- إثم أشد، ومن أكبر الكبائر. ولم يأذن الفقهاء بالفرار إذاكان الكفار ضعفي المسلمين عددًا.

وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦

أي إذا كان التولي لمصلحة حربية، مثلا إذا كان الهجوم بعد التولي أكبر تأثيرًا، أو أن فئة من الجنود انفصلت من الجند المركزي، ثم تولت للإبقاء على نفسها والتحيز إلى المركز، فهذا التولي ليس جريمة، وإنما الإثم إذا كان ينوي بالتولي التخلص بنفسه والفرار بها.

فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧

ولما حمي وطيس الحرب تناول النبي ﷺ كفًّا من حصباء، فرمى بها في وجوه جيش الكفرة، وقال ثلاثًا: شاهت الوجوه. فشاء الله تعالى أن تصل ذرات الحصباء إلى عين كل كافر، فجعلوا يمسحون عيونهم، ففاجأهم المسلمون بالهجوم، فحصدوا عددًا كبيرًا منهم. وهذا ما أشار إليه بقوله: الظاهر أنك رميت الحصباء بيدك، ولكن ليس من فعل البشر عادةً أن يوصل كفًّا من الحصباء إلى عين كل كافر، فيتسبب ذلك في هزيمة جيش مدجج بالسلاح، وإنما ذلك بيد الله تعالى، الذي صرف وجوه الجيش بكف من الحصباء. وأنى لهؤلاء المسلمين المعوَزين أن يضربوا أعناق الكفرة بقوة عضدهم.

وإنما ذلك من مظاهر قدرة الله تعالى أن أودى بهؤلاء الكفرة المتكبرين، اللّٰهم إلا أن يدك استُخدِمت في صدور هذا الفعل ظاهرًا، وخلق الله

تعالى فيهما قوة تفوق العادة مما لاتكسبه بكسبك واختيارك، وإنما فعل ذلك لتظهر قدرة الله تعالى، ويتم نعمته على المسلمين، وإن الله تعالى سميع لدعاء المسلمين واستغاثتهم، وعليم بأفعالهم وأحوالهم. ويعلم كيف ينعم على عباده المقبولين وبأي وجه يناسب الإنعام عليهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

أي خيب الله تعالى مخططات الكفرة كلها اليوم، وكذلك يضعف تدابيرهم وحيلهم في المستقبل أيضًا.

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

هذا خطاب إلى كفار مكة، كانوا يقولون للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل الهجرة: (مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ)؟ فالفصل التام يوم القيامة، ولكن نوعًا من الفصل قد رأيتموه اليوم في ساحة بدر، كيف عاقبكم على أيدي المسلمين الضعفاء بصورة خارقة للعادة. فإن أمسكتم عن معارضة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعن الكفر والشرك كان خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن أبيتم إلا قتاله فإننا ننصر المسلمين مثل نصرنا هذا، فمصيركم الذل والهوان.

فإذا كان تأييد الله تعالى حليف المسلمين، فإن جمعكم – مهما كثر عددًا- لن يغنيكم شيئًا. وفي بعض الأحاديث: إن أبا جهل وغيره أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم من مكة، وقالوا: اللّٰهم، انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين، واهزم شرهما. فأجاب عنه أيضًا بقوله: (فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ)، فانتصر من كان أعلى وأفضل، وذلَّ وافتضح المفسد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

ذكر أولًا أن الله تعالى مع المؤمنين، وهنا يرشد المؤمنين إلى الموقف الذي يجب أن يتخذوه من الله ورسوله، فيستحقوا نصر الله تعالى وحمايته. فنبه على أن المؤمن الصادق يجب عليه أن يطيع الله تعالى ورسوله بقالبه كله مهما حاولت الأحداث والأحوال صرفه عن ذلك، فليس له أن يتولى قولًا أو فعلًا عنه في حال من الأحوال بعد أن سمع كلام الله تعالى ووعاه وآمن به.

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾

أي يقولون بألسنتهم: سمعنا، ولكن ما فائدة سماع إذا لم يفهم المرء القول الحق بعد سماعه، أو لايقبله؟ وقال اليهود قديمًا لموسى عليه السلام: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)، وسيأتي قول مشركي مكة: (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَآ) [الأنفال:٣١]، أي حسبك أن سمعنا ما تتلوه علينا من القرآن، ولو شئنا لأتينا بكلام مثله. وكان من ديدن المنافقين في المدينة أن يقروا للرسول والمسلمين وينكروا بقلوبهم كما كانوا. والحاصل أنه يجب على المؤمن الصادق أن يكون على خلاف ما عليه اليهود و المشركون والمنافقون. فالمؤمن من شأنه أن يخضع بقلبه ولسانه وعمله للأحكام الإلهية والأحاديث النبوية الحاضرة والغائبة.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾

إن الذين أعطاهم الله تعالى ألسنة يتكلمون بها، وآذانًا يسمعون بها، وقلوبًا يفقهون بها، ثم شلوا هذه القوى كلها، فلم يقولوا الحق بألسنتهم، ولا سعوا في طلب الحق، فلم يستخدموا القوى التي أعطاهم الله تعالى في وظائفها الحقيقية أعطوها لها، لاشك أنهم شر من الدواب.

وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

أي الأصل أنهم فقدوا أساس الخير، وإنما ينال المرء الخير الحقيقي إذا كان فيه لوعة صادقة في طلب الحق، وكفاءة لقبول نور الهداية، وأما الأمة التي فقدت روح طلب الحق إطلاقًا، وأتلفت بيدها هذه القوى التي منحها الله تعالى، فتتلاشى فيها مع مرور الأيام صلاحية قبول الحق. وهذا ما عبر عنه بأن الله تعالى لم يرَ في قلوبهم صلاحية قبول الخير والهدى. ولو علم فيهم شيئًا من هذه الصلاحية، لأسمعهم – كعادته- آياته وفهَّمهُم. وأما فيما هم عليه لو أسمعهم الآيات، و فهَّمهم إياها، فإن هؤلاء المعاندين لم يكونوا ليؤمنوا بها ويقبلوها حتى بعد فهمها ووعيها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾

أي ما يدعوكم الله ورسوله إليه من المجاهدة وغيره فيه الخير كله من أخمص القدمين إلى قمة الرأس، فرسالته الدعوية رسالة حياة عزيزة مطمئنة

في الدنيا ورسالة الحياة الأبدية في الآخرة لكم. فعلى المؤمنين أن يستجيبوا لله ورسوله، ويقبلوا إلى ما يدعوهم إليه وفي أي وقت يدعوهم معرضين عن الأشغال كلها.

فائدة: أي لاتتأخروا في الامتثال والاستجابة، فربما يتغير القلب بعد هنيهة، فإن المرء لايملك قلبه؛ بل قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبه حيث يشاء. ولايصرف قلب أحد من رحمته ابتداءً، و لايختم عليه، وأما إذا تكاسل العبد في امتثال الأحكام، واستمر عليه، فيجازيه بحجبه من رحمته، أو يختم على قلبه إذا أعرض عن الحق عنادًا وعنتًا. كذا في موضح القرآن. وحمل بعضهم قوله: (يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِه) على بيان القرب، أي أن الله تعالى قريب إلى العبد، أكثر من قلبه إليه، (وَنَحْنُ اَقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ) [ق:١٦]، فاصدقوا في امتثال أمر الله تعالى؛ فإنه سبحانه أكثر اطلاعًا منكم على أحوال قلوبكم وأسرارها. فلاتنطلي عليه الخيانة، وإليه تحشرون جميعًا، فتنكشف المكنونات والسرائر كلها عند ذلك.

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

أي هَب أن معظم أفراد أمة من الأمم تعودوا الظلم والعصيان، وفارقهم بعضهم، فداهنوهم، ولم ينصحوهم، ولم يتبرؤوا منهم، فإنها فتنة تطال الظالم والساكت والمداهن جميعًا. فيعمهم العذاب إذا جاء حسب درجاتهم ولاينجو منه أحد. والمقصود من الآية على هذا التفسير أن استعدوا لامتثال أوامر الله ورسوله، وانصحوا العصاة، وتبرؤوا منهم إن أبوا. وأما الشاه رحمه الله -أي الشاه عبد القادر- فحمل الآية على أن المسلمين عليهم أن يتجنبوا بصفة خاصة فسادًا -إثمًا- يتعدى أثره الضارالعاصي إلى غيره. وقال آنفًا: لاتتأخروا عن امتثال أمر الله ورسوله، فإن التأخيرقد يتسبب في انصراف القلب عنه، ثم قال هنا تنبيهًا: إن الصالحين إذا تكاسلوا فإن عامة الناس يتركونه كليًّا، فتشيع عادة سيئة، ووباله عليهم جميعًا، كما أن الشجاع إذا تكاسل في الحرب، فإن الجبان يلوذ بالفرار، فإذا انهزموا لم يدفعه حتى الشجاع.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

أي لاتتكاسلوا في أمر الله تعالى – المجاهدة- نظرًا إلى قلتكم وضعفكم، ألا ترون أنكم كنتم أقل عددًا وعدة قبل الهجرة وحتى بعدها، وطمع الناس في القضاء عليكم نظرًا إلى ضعفكم. وكنتم تخافون أن يتخطفكم أعداء الإسلام، ولكن الله تعالى آواكم في المدينة، وعقد المؤاخاة المنقطعة النظير بين الأنصار والمهاجرين، ثم كيف نصركم نصرًا واضحًا من الغيب في غزوة بدر، وقطع دابر الكفار، ثم فتح لكم فتحًا، وأعطاكم الغنيمة وفدية الأسرى علاوة على ذلك، والحاصل أنه أعطاكم الحلال الطيب النزيه وأنواعًا من النعم، لتشكروا له.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾

معنى خيانة الله ورسوله عصيان أوامرهما، فيقولوا بألسنتهم: نحن مسلمون، ويأتوا بما يفعله الكفار، أو يغشوا فيما كلفهم الله تعالى إياه، أو يسرقوا من الغنيمة، ونحو ذلك. فاحذروا الخيانة في جميع الأمانات سواء ما أسنده إليكم الله ورسوله أو العبادُ. ودخل فيها جميع أنواع الحقوق.

وفي الروايات أن يهود بني قريظة حين طلبوا من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الصلح، وأنهم يعامَلون معاملة بني النضير، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: لا، ليس لكم مني إلا أن تنزلوا على حكم سعد بن معاذٍ. فطلبوا بإذن من الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أبا لبابة إليهم، وقالوا: ما رأيك في هذا الأمر؟هل ننزل على حكم سعد بن معاذ أم لا؟ وكان لأبي لبابة أموال وأولاد عند بني قريظة، وكان يناصحهم، فأشار بيده، إلى حلقه أي إن نزلتم على حكم سعد ابن معاذ ذبِحتم. وما إن أشار أبو لبابة بذلك حتى تنبه على أنه خان الله ورسوله، فرجع وربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وتعهد ألا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى يموتَ أو يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام كذلك، وكان يغشى عليه جوعًا، حتى جاءت البشرى بأن الله قد تاب عليه، فقال: والله، لا أَحُلُّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يَحُلُّني، فجاء فحلَّه بيده، إلى آخر القصة... وادعى ابن عبد البر أن هذه القصة كانت عند تخلفه عن غزوة تبوك. والله أعلم.

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يقوم المرء في غالب الأحوال بسرقة عباد الله تعالى لأجل المال والأولاد، فنبه على أن قيمة الأمانة

عند الله تعالى تفوق ما في الدنيا من المال والأولاد ونحوهما.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

أي إن اتقيتم خوفًا من الله تعالى، فصل الله تعالى بينكم وبين أعدائكم، في الدنيا بأن يعزكم، ويذلهم أو يهلكهم، وفي الآخرة أيضًا بأنكم في نعيم دائم، ومصيرهم إلى النار (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُوْنَ) [يس:٥٩]، و (هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنٰكُمْ وَالْأَوَّلِيْنَ) [المرسلات:٣٨]. وثانيًا: أن الله تعالى يورث قلوبكم نورًا بفضل التقوى، تميزون به مذاقًا ووجدانًا بين الحق والباطل والخير والشر.

هذا، وإن الشاه – الشاه عبد القادر رحمه الله– قال: لعل المسلمين خطر ببالهم بعد فتح بدر أن هذا الفتح جاء بالصدفة والاتفاق، فيحسنوا إلى الأعداء الخافية عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فلايتعرض الكفرة لديارهم وعيالهم في مكة بالسوء، فالآية الأولى ناهية عن الخيانة، والآية الثانية تسلية بأنه سيقضي بينكم لاحقًا، فلاتبقى دياركم وعيالكم أسرى في أيدي الكفرة.

وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

اجتمعت الكفرة قبل الهجرة في دار الندوة وتشاوروا بينهم في أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. فقالوا: إنه أحرجهم كثيرًا، ووقع في حباله أناس وافدون من الخارج، فعسى أن يجمع له قوة كبرى مع مرور الأيام، فيعز عليهم مواجهتها. فاختلفت آراؤهم، فمن قائل: أثبتوه وقيدوه، و اضربوه ضربًا مبرحًا، ومن قائل: أخرجوا وشردوه من البلاد، حتى نتخلص من الفتنة اليومية. وفي نهاية الأمر اتفقوا على رأي أبي جهل، بأن يختاروا من كل قبيلة غلامًا، فيضربوه بالسيف ضربة رجل واحد. فلاتقوى بنو هاشم على حرب العرب كلهم. فترضى بالدية، وتتفرق على القبائل كلها. وكان هؤلاء الأشقياء يحيكون هذه الدسائس في جانب، وفي جانب آخر كان يقضي عليه تدبير من الله تعالى حسن دقيق، فجاءته الملائكة وأخبروه بذلك، فأمر عليًّا رضي الله عنه أن يبيت في مضجعه، وخرج يذر الرماد في وجوه هذا الجمع الذي جاء لقتله. فلم يضروا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولا عليًّا شيئًا، وخاب الأعداء و

خسروا. ثم قُتِل في بدر من أشاروا بقتله ﷺ. فأخبر بذلك بأن الله تعالى إذا كان حليف أحد لم يضره أحد. وكما أنقذ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، كذلك لايعجزه حفظ دياركم وعيالكم في مكة. كما قالوا: إذا كان العدو قويًّا فإن الحفيظ أقوى منه.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

كان النضر بن الحارث يقول: لو شئنا لجئنا بقرآن مثله، وهل فيه غير القصص والواقعات؟ وهلا شاؤوا ذلك وقد كان القرآن الكريم جعل الفصل في القضايا كلها إلى ذلك؟ ومن الطرائف أن قيل: لو انطلقت فرسي لوصلت إلى مدينة «لندن» في يوم واحد، ولكنها لاتنطلق. فكانوا يسمعون قصص الأمم السابقة ويقولون: هي قصص الأمم الماضية. وها قد شاهدوا في بدر أنها ليست أساطير، فقد تحقق عليكم وعد العذاب كما تحقق على الأمم الماضية.

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّٰهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

دلت هذه الآية على منتهى جهل وشقاة مشركي مكة، أي كانوا يقولون: اللّٰهم، إن كان هذا هو الدين الحق، الذي طال تكذيبنا له، وبهذه القوة الشديدة، فما بال التأخير؟ وهلا أنزلت علينا مطرًا من الحجارة كما أنزلته على الأمم السابقة، وهلا تستأصلنا بعذاب آخر؟ قالوا: دعا به أبوجهل حين خرج من مكة المكرمة بين يدي الكعبة. فرأى نموذجًا مما طلبه في بدر. فقد قُتِل هو و٢٩ من صناديد قريش على أيدي المسلمين المعوزين. وأسرَ سبعون من رؤسائهم مهانين. فقطع الله تعالى بذلك دابرهم. حقًّا لم ينزل عليهم حجارة من السماء كما نزلت على قوم لوط، ولكن كفا من الحصباء التي رمى الله تعالى بها على يد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يشكل نموذجًا بسيطا لنزول الحجارة من السماء. (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ)[الأنفال:١٧].

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

ومن سنة الله تعالى أنه حين ينزل العذاب على أمة لتكذيبها الرسل، يفصل رسوله منهم، فلما فصل الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، أخذَ

أهلها بالعذاب في بدر.

فائـدة: والحاجز من نزول العذاب أمران: الأول: تواجد الرسول فيهم. والثاني: الاستغفار. أي كان العذاب في مكة المكرمة مؤجلًا لوجود النبي ﷺ، وقد نزل الآن. وكذلك ما ندِم العصاة فإنهم لايؤخَذون، وإن عظمت ذنوبهم. وقال النبي ﷺ: أمران يمنع العذاب عن العصاة: وجودي والاستغفار. كذا في موضح القرآن.

تنبيه: المعنى الذي حمل عليه المترجم المحقق قدس الله روحه قوله: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبُهُمْ) يوافق رأي بعض المفسرين. وذهب الأكثرون إلى أن المعنى: العذاب الخارق للعادة، الذي كان يطالب به المشركون، والذي يستأصل الأمم دفعة واحدة، يمنع إنزاله أمران: الأول: تواجد النبي ﷺ، فإنه لاينزل مع وجوده على الأمة - وإن كانت أمة الدعوة- عذاب خارق للعادة يستأصلها. فلاينافيه نزول عذاب على أفراد منها حينًا من الأحيان. والثاني: تواجد المستغفرين- مسلمين كانوا أو غيرهم- كما جاء أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم وطوافهم: غفرانك، غفرانك، وأما العذاب غير الخارق – كالسنة والوباء وقتل الكثير ونحوها- فيمكن نزوله مع وجود الرسول أو بعض المستغفرين. وكيف لاينبههم الله تعالى إذا كانوا والِغِين في الفسق والفجور؟ وهاذا ما يأتي بيانه لاحقًا.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

أي عدم نزول العذاب يرجع إلى تلاشي السببين المذكورين آنفًا، وأما فسقكم وظلمكم وشقاوتكم فمما يقتضي نزول العذاب عاجلًا. وهل ظلم أشد من اختراع أنواع من الحيل لمنع الموحدين من دخول الحرم أو العبادة فيه؟ بل إخراجهم من وطنهم - مكة المكرمة- في محاولة مستمرة لمنع هؤلاء الأتقياء والعابدين من دخوله. ومما يزيد الطين بلة أنهم يستندون في تبرير هذا الظلم إلى أن أنهم سدنة الحرم الشريف ذوو سلطات كاملة، فندخله من نشاء ونمنعه من نشاء. وهذا من حقنا. وفي الواقع ليس من حق السادن والمتولي أيضًا أن يمنع الناس عن العبادة في المسجد. وثانيًا: أنهم ليس لهم ولايته، وإنما يتولى الحرم الشريف الأتقياء من العباد، وليس للمشركين والفجار حق في الولاء.

ولكن يظن معظمهم بجهلهم أنهم أبناء إبراهيم عليه السلام، ومن قبيلة فلان، فولاية الكعبة حق ورثناه، دون قيد أو شرط. فنبه على أن الولاية إنما هي للمتقين من أولاد إبراهيم عليه السلام، وليس لهؤلاء الظالمين حق، فيغضبوا ولايسمحوا بالدخول إليها.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

أي يمنعون المصلين حقًا عن المسجد، وأما صلاتهم فما هي؟ طواف بالبيت عراة، والمكاء والتصدية بدلًا من ذكر الله تعالى، وذلك بهدف الإخلال بعبادة المسلمين، أو استهزاءً بهم وسخرية منهم. والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

تكفل اثنا عشر رئيسًا من رؤسائهم أن يطعم كل واحد منهم يومًا واحدا الجيش. فكانوا يذبحون عشر جزائر كل يوم واحد منهم. ثم انهزموا، وعاد الجمع المنهزم إلى مكة، فقالوا لأبي سفيان وغيره: أنفقوا مال القافلة التجارية على الثأر من محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فرضوا به. وهذا النوع من الإنفاق هو المذكور هنا.

فائدة: أي يعضون على أيديهم ندمًا وحسرة حين يُغلبون في الدنيا ويعذبون في الآخرة، بأن خسروا أموالهم ولم يفلحوا. فأنفقوا أولًا في بدر ثم في أحد وغيرها ما كان لهم من مال وقوة جسدية، فلم ينفعهم ذلك شيئًا، وهلكوا أو ذلوا أو ندموا وتابوا من الكفر.

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

في موضح القرآن: إن الله تعالى سيظهر الإسلامَ شيئًا فشيئًا، وينفق الكفرة خلال ذلك ما لهم من قوة المال والنفس، وذلك ليتميز الخير والشر، أي يسلم كل من كتِبَ له الإسلام، ومن كتب له الموت على الكفر حُشِرَ إلى النار.

فائدة: أي لهم الخسارة في الدنيا والآخرة معًا.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

أي فإن انتهوا عن الكفر والطغيان وعداء

الإسلام، وينزووا إلى لواء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما اقترفوا من الآثام حال الكفر، غفر لهم ذلك، فالإسلام يهدم ما كان قبله. وأما حقوق العباد فلاتُغفر، فلها حكم آخر.

فائدة: كما هلكت الأمم السابقة بتكذيب وعداء من مضى من الأنبياء، يتعرض هؤلاء أيضًا للهلاك والبوار، أو المعنى: كما عوقب إخوانهم في بدر، يتعرضون مثلَهم للعقوبة.

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

أي لايقوى الكفار على الصد من الإيمان، أو أن يهددوا بفناء الدين الحق، كما يشهد التأريخ بأنه لم يظهر الكفار إلا تعرض إيمان المسلمين ودينهم للخطر، فهذه أسبانيا لايخفى على أحد أنه كيف دمروا المسلمين وردوهم عن دينهم حين نالوا – الكفرة– القوة والفرصة لذلك. والحاصل أن الهدف الأول من القتال هو تأمين المسلمين وطمأنتهم كي يعبدوا الله تعالى ويكون الإيمان والتوحيد بمنجاة من أيدي الكفرة. وتفسير الفتنة به ورد عن ابن عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم في كتب الحديث.

فائدة: وآخر أهداف المجاهدة أن تنكسر شوكة الكفر، ويكون الحكم لله وحده. ويظهر الدين الحق على الأديان كلها (لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) [التوبة:٣٣]، سواء كان ذلك مع بقاء الأديان الباطلة الأخرى كما في عهد الخلفاء الراشدين وغيرهم، أو بالقضاء على الأديان الباطلة كلها كما في عهد نزول المسيح عليه السلام. فهذه الآية دليل صريح على أن القتال–سواء كان بدءًا أو دفاعًا– مشروع للمسلمين إلى أن يتحقق هذان الهدفان. ولذا ورد في الحديث: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة». (يرجع لتفاصيل أحكام الجهاد وشرائطه إلى كتب الفقه).

فائدة: أي لايقاتَل من انتهى في الظاهر عن شره وكفره، ويوكل باطن أمره وحال مستقبله إلى الله تعالى. فإنه لايخفى على الله تعالى ما يفعلون. وإنما المسلمون مكلفون بالعمل بالظاهر، وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عزوجل.

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ

ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

أي على المسلمين أن يثقوا بعون الله تعالى ويجاهدوا، دون الخوف من كثرة الكفار وعدتهم و عتادهم، كما رأوا في بدر كيف نصر الله المؤمنين نصرًا مؤزرًا.

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قال في أول السورة (الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) [الأنفال:١]، وهنا بعض التفاصيل. وهو أن ما غنموه بالقتال مع الكفار، خمسه لله تعالى، يأخذه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نيابة عنه سبحانه، وينفقه في خمسة وجوه: على نفسه، وعلى قرابته - بني هاشم وبني عبد المطلب، الذين نصروه في سبيل الله تعالى قديمًا، ووقفوا بجانبه للإسلام أو محض القرابة، وحرم عليهم الزكاة وغيرها- وعلى اليتامى والمساكين والمسافرين. وتوزع أربعة أخماس الغنيمة على الغانمين، للفارس سهمان، وللراجل سهم. ولم يبق بعد وفاة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من مصارف الخمس إلا الثلاثة الأخيرة؛ إذ انتفت نفقة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد وفاته، وكذلك سهم ذوي القربى، الذي كان لهم لأجل نصرهم قديمًا للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وبقي سهم المساكين والمحتاجين. ويقدَّم فيه المساكين من قرابة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحاب الحاجات. وذهب بعض أهل العلم إلى أن لأمير المؤمنين خمس الخمس لنفقات نفسه بعد وفاة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وفي الروايات أن خمس الغنيمة كان يصرف النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعضه إلى بيت الله – الكعبة-. وقال بعض الفقهاء: يصرف إلى مساجد المنطقة إذا كانت الكعبة بعيدة منها.

فائدة: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) المراد به يوم بدر، الذي قضِيَ فيه بين الحق والباطل قضاء واضحًا، وأنزل الله تعالى يومه فتحه ونصره على أكمل عباده. وأرسل الملائكة مددًا. وأورثهم السكينة والطمانينة، فلايشق على من يؤمن بالله تعالى و تأييده من الغيب أن يخرجوا الخمس من الغنمية لله تعالى.

فائدة: كما نصركم يومئذ، يقدر على أن يظهركم ويفتح لكم في المستقبل أيضًا.

* * *

حول إعجاز القرآن الكريم

بقلم: الدكتور محمد أحمد الغمراوي

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾

ثلاث كلمات كريمة أنكر الله بها على مشركي العرب في الماضي، ومستشرقي الغرب ومن لف لفهم في الحاضر، نسبة القرآن الكريم إلى محمد (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) افتراء منه على الله فيما زعموا. والفعل المضارع في العربية يدل على التجدد كما يدل على الحاضر، والقرآن كتاب الله مخاطب به الناس في كل عصر حتى تقوم الساعة.

وقد وردت الكلمات الكريم الثلاث، بما فيها من إنكار وتعجيب، في آيات خمس من القرآن الكريم، آيتان في سورة هود، وآية في سورة يونس، وآية في الأحقاف، وآية في سورة السجدة.

فأما آيتا سورة هود، فأولاهما هي ثانية الآيتين الكريمتين: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود:١٢-١٣) وهي آية التحدي المكي بعشر سور مثل القرآن.

وثانية آيتي سورة هود هي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (هود:٣٥).

وأما آية سورة يونس فهي ثانية الآيتين الكريمتين: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس:٣٧-٣٨). وهي آية التحدي المكي بسورة مثل القرآن.

وأما آية سورة الأحقاف فهي ثانية الآيتين الكريمتين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ (الأحقاف:٧-٨).

وأما آية السجدة فهي ثانية الآيتين الكريمتين: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ (السجدة:٢-٣).

هذه الآيات الكريمة قد ذكرت حسب ترتيب نزول الوحي بسورها إلا فيما يتعلق بآيتي التحدي في هود ويونس، فأكثرية المفسرين على أن التحدي بعشر سور، كما في آية هود، قد كان قبل التحدي بسورة، كما في آية يونس، وإن كان تأريخ النزول يقول: إن سورة يونس نزلت قبل سورة هود عند الأكثرية.

فهناك إذن موقفان متناقضان بالنسبة لآيتي التحدي في السورتين من حيث ترتيب نزول الوحي بهما: أكثرية من المفسرين تأخذ بالمعقول وتقول: إنه لا معنى للتحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة، فإن الذي يعجز عن سورة هو عن عشر سور أعجز، وإذن فترتيب نزول الوحي بالآيتين غير ترتيب نزوله بالسورتين، وقلة من المفسرين تأخذ بالمنقول، وتجعل ترتيب نزول الوحي بالآيتين هو عين ترتيب نزوله بالسورتين؛ لأنه لم يرد بالعكس نص، ثم تحاول إيجاد معنى للتحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة.

هذا وضع لا يمكن السكوت عليه؛ لأن أحد الفريقين لا شك مخطئ. صحيح أن الحجة العقلية هنا غالبة واضحة، لكن النقل أيضًا ينبغي أن يكون له وزنه. والتناقض بين العقل والنقل ممتنع عند صحة الاثنين، فلنتبين مواطن الضعف في موقف المحتجين هنا بالنقل، ومواطن القوة في موقف المحتجين بالعقل، حتى إذا تبين أن ليس في النقل ما يضعف حجة الآخذين بالعقل، أمكن النظر في الآيات الكريمة الخمس على ترتيبها عند الكثرة الغالبة من المفسرين من غير أن يكون هناك موضع للتشكيك فيه.

سورة يونس نزلت قبل سورة هود عند الأكثرين. لكن هذا لا يدل على أن آية التحدي في يونس نزلت قبل آية التحدي في هود إلا إذا تحقق أحد احتمالين: أن كلا من السورتين نزلت جملة، أو أن سورة يونس تم نزولها قبل أن ينزل شيء من سورة هود. وليس في النقل ما يؤيد شيئًا من هذا. فالسور التي جاء النقل بنزولها جملة قليلة معدودة، منها سورة المرسلات، وليس من بينها يونس ولا هود. ولقد أحصوا تلك القلة من السور، على خلاف فيها؛ لأن الأصل في نزول القرآن أن الله سبحانه قد أنزله نجومًا، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمر إذا نزل النجم أن يضعه في سورة كذا بعد آية

كذا أو بين آية كذا وآية كذا، حتى لقد كان ذلك موضع تعجب واستغراب واعتراض من المشركين، وأهل الكتاب ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله من سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٣). حتى السور القصار التي هي مظنة أن ينزل الوحي بكل منها جملة لم تنزل كلها كذلك. فسورة العلق وهي أول ما نزل لم تنزل جملة كما هو معروف، وسورة الضحى لم تنزل جملة كما ذكر السيوطي في الإتقان؛ بل من السور القصار ما نزل أوله بمكة، وباقيه بالمدينة كسورة الماعون فيما حكاه صاحب الإتقان، وكما ذكر في ديباجة السورة في طبعة المصحف التي أشرفت عليها ا للجنة التي رأسها المرحوم الشيخ محمد الشهير بخلف الحسيني شيخ المقارئ المصرية في ذلك العهد. وكذلك الأمر في السور الطوال. كثير من مكيها يحتوي آيات مدنية، وقليل من مدنيها يحتوي بعض آيات مكية، وهو أعجب وأدل على أن أكثر السور القرآنية كان إذا نزل أولها لم تكن تستتم قبل نزول أول غيرها؛ بل الحكم على السورة أ مكية هي أم مدنية كان تابعًا لأولها – إذا نزل بمكة كانت مكية وإذا نزل بالمدينة كانت مدنية فيما نقل صاحب الإتقان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال[1]: «كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما شاء»، ولازم هذا أن الأمر كان كذلك إذا نزلت فاتحة سورة بالمدينة. وإذن فمعنى نزول سورة يونس قبل سورة هود بمكة أن فاتحة يونس نزلت قبل فاتحة هود، لا أكثر من هذا. أما بقية كل من السورتين فقد نزلت نجومًا حسب الأصل في نزول القرآن نجومًا تبعًا لحكم الله وحكمته في الحوادث التي لم يكن يعلم مواقيت وقوعها إلا هو سبحانه؛ بل إن في نجوم هاتين السورتين ما هو مدني ذكره صاحب الإتقان[2]، وأشارت إليه لجنة الشيخ خلف الحسيني في ديباجة كل من السورتين[3] على اختلاف بينهما في الآية (٩٦) من سورة يونس. ومن أعجب العجب أن تقع الحادثة بالمدينة ويلحق النجم الذي نزل فيها بسورة مكية، أو العكس. لكن لله في ذلك حكمة لا شك، منها أن يكون في ذلك دليل على أن القرآن من عند الله لا من عند بشر، إذ قد نقض تأليفه بهذا عادة البشر في التأليف مع تمام الانسجام في المعنى والتعبير. وقد أقام المرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز من سنة الله هذه في القرآن دليلًا[4] طريفًا قاطعًا على أن القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

فمن الواضح أن السورتين الكريمتين لم تستتما

كلتاهما إلا في المدينة وإن استفتحتا في مكة، وأنه لا يلزم من نزول فاتحة يونس قبل فاتحة هود – وهذا هو معنى نزول سورة يونس قبل سورة هود كما هو لازم قول ابن عباس المنقول آنفًا – أن جميع نجوم يونس قد نزلت قبل جميع نجوم سورة هود حتى يصح لقائل أن يقول: إن آية التحدي في سورة يونس قد نزل بها الوحي قبل نزوله بآية التحدي في هود، بالرغم من أن التحدي بسورة لا ينبغي عقلًا أن يكون قد وقع قبل التحدي بعشر سور مثل القرآن.

على أن هناك رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكرها صاحب الإتقان في الفصل الذي حرر فيه السور المختلف فيها تقول: إن سورة يونس مدنية. صحيح أن هذا لا يعني، حسب المنقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سابقًا، إلا أن أول يونس نزل في المدينة بدلًا من أن يكون نزل بمكة حسب ما اختاره الأكثرون عن ابن عباس أيضًا. لكن هذا الاختلاف في سورة يونس، هل هي مكية أو مدنية يذهب بأية بقية يمكن بعد كل الذي قدمناه، أن تكون قد بقيت من الشبهة النقلية التي تمسك بها القلة من المفسرين في معارضة الحجة العقلية التي حملت الكثرة على القول بأن التحدي بعشر سور قد كان قبل التحدي بسورة مثل القرآن. وإذا كان لابد من تكييف آخر للموقف، فالحجة العقلية في وضوحها وقوتها تحسم ذلك الخلاف بين الروايات النقلية، وتكون هي الدليل على أن الرواية الصحيحة هي التي تتفق مع ما يقتضيه العقل من أن التحدي بسورة لا يمكن أن يكون قد وقع قبل التحدي بعشر.

على أنه لا داعي حتى إلى مثل هذا التكييف إذا تتبعنا طبيعة ما يترتب على كل من الموقفين. فموقف الكثرة هو الترقي في التحدي. هو الترقي من التحدي بالقرآن جملة إلى التحدي بعشر سور مثله إلى التحدي بسورة مثله، ثم إلى التحدي بسورة من مثله مع التنبؤ بأنهم لن يستطيعوا ولن يفعلوا، ومع عدم تقييدهم في السورة بطول، فليختاروها أقصر سورة إذا شاءوا. هذا الترقي في الإلزام وقطع العذر يتمشى مع سنة الله في الترقي بعباده في التشريع، والتدرج بهم في الفطام عما ألفوا إلى ما يريد سبحانه أن يستقر عليه الدين، كما هو ثابت في تشريع الصلاة وتشريع الصوم وتحريم الخمر وتشريع القتال.

أما موقف القلة في قولهم بالتحدي بسورة ثم بعشر سور ثم بسورة من مثل النبي في أميته، فهو خلط وخبط يخالف تلك السنة الإلهية، ويفتح الباب لملحد أو مستشرق أن يقول: إن المتحدي تراجع في تحديه – تراجع من سورة إلى عشر لما أحس أن السورة على إطلاقها هي في متناول الجميع. ثم تراجع من التحدي بعشر إلى التحدي

بالقرآن كله في آية الإسراء لما خاف أن تكون السور العشر على إطلاقها في مقدور الفصحاء من أهل العلم والأدب إن لم يكن في عصر ما، ففي ما يستقبل من العصور. ولا ينفع مع الملحد أو المستشرق أن يقال له: إن سورة الإسراء نزلت قبل سورة هود؛ لأنه عندئذ ينكر تأريخ النزول ويحتج بموقف تلك القلة من المفسرين التي قالت: إن ا لتحدي بعشر سور قد كان بعد التحدي بسورة، لا قبله، ويساعده في موقفه المتعنت هذا من تأريخ نزول السور أن ترتيب سورتي يونس وهود في ا لمصحف هو عين ترتيبها في تأريخ النزول عند الأكثرين، ومنهم تلك القلة – وأن سورة هود في المصحف تسبق سورة الإسراء. فموقف كموقف تلك القلة – يعين الملحد والمستشرق اليهودي أو النصراني على موقفه الباطل من القرآن، وعلى إلقاء الشبه في طريق الناشئ المسلم – هو لا شك موقف باطل، لهذا السبب وحده إن لم يكن لكل ما تقدم من الأسباب.

أما وقد انجلى الموقف وتبين أن موقف الكثرة من المفسرين هو الحق، بالحجة بعد الحجة لا لمجرد أنهم الكثرة، فلنحاول أن نتأمل الآيات الكريمة وموقع ا لاستفهام الإنكاري العجيب ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ منها ومن الآيات التي قرنت بها، اللّٰهم إلا ثانية آيتي سورة هود؛ فإنها جاءت أثناء قصص نوح عليه السلام لتؤكد أن ما ورد فيه لا يمكن أن يكون من عند الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان يقول المشركون وأهل الكتاب. ولا يؤبه بقول من قال: إن الخطاب في الآية لنوح وإن نسب القول لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فابن كثير الذي يفسر بالمأثور لم يذكر هذه النسبة، ولو كانت صحيحة لذكرها، ولما قال: إن الخطاب هو لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتراضًا في القصة لتوكيدها، ولنفي أن تكون مفتراة ممن يعلم أن الافتراء له عقابه عند الله.

ويبقى الآن من الآيات المصدرة بتلك الكلمات الكريمة الثلاث أربع آيات كل مقرونة بسابقتها كما ذكرت قبل. فلننظر ماذا عسى أن يهدينا إليه تأمل هذه الثنائيات الكريمة الأربع.

ثنائية سورة هود:

تتميز آية التحدي في هود والآية قبلها من بين الثنائيات الأربع بأن الآية التي قبل آية التحدي مدنية، في حين أن بقية الآيات كلها مكية. ومدنية الآية ذكرها السيوطي في الإتقان وأقرتها لجنة الشيخ خلف الحسيني في ديباجة السورة، فهي من ناحية مثل للنجم المدني في سورة هود، وهي من ناحية أخرى مثل للنجم ينزل، فيؤمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يضعه في سورة كذا عقب آية كذا أو بين آية كذا وآية كذا. فهذه آية مدنية بين آيتين مكيتين. وإذا

قرئت الآيات بدونها – ويمكن القارئ أن يرجع إلى مصحفه في ذلك – كان الكلام مستقيما وإن بدت آية التحدي كأنها شبه مستأنفة. لكن الآيات في تتاليها الذي استقرت عليه ليس فيها من شبه الاستئناف شيء. فالكافرون الذين كذبوا النبي فيما أنبأهم به من أنهم مبعوثون من بعد الموت في الآية(٧)، ولم يصدقوا ما أوعدهم الله به من العذاب إن هم استمروا في عنادهم متسائلين (ما يحبسه؟) مع أنه إذا نزل بهم فلن يرفع عنهم كما في الآية (٨)، ألحوا هم وأمثالهم في المدينة على النبي أن يترك ذكر آلهتهم وآبائهم بسوء، وأن يأتيهم بآية محسوسة من كنز ينزل عليه أو ملك يأتي معه، كما يفهم من الكلمات الأولى في هذه الآية المدنية التي حذرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخفف عنهم شيئًا من ثقل الدعوة، ورغبته صلوات الله عليه وسلامه ألا يداخله ضيق من طلبهم منه ما لا يملك أن يجيبهم إليه، فماهو إلا نذير عليه أن يؤدي النذرة كاملة وإن نقلت، وبكل ما وراءها من مصير الدعوة ومصيرهم إلى الله الوكيل الرقيب الحسيب على كل شيء، كما تصرح به باقي كلمات الآية. وهنا تأتي الكلمات الكريمة الثلاث ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ استنكارًا لمظهر آخر من عنادهم في التكذيب بالوحي والقرآن، وتمهيدًا ليس فقد لدحض التهمة، ولكن للرد على طلبهم نزول الكنز ومجيء الملك آية محسوسة بتنبيههم إلى خمس آيات محسوسة بين أيديهم، ألا وهي(٥) خمس عشرات من السور الطويلة والقصيرة التي نزلت قبل سورة هود يعجزون هم ومن يستعينون بهم من الجن والإنس عن أن يأتوا بمثل عشرة منها يختارونها كيفما شاءوا.

والآن لابد من وقفة عند كلمتين في الآية الكريمة، إحداهما فيها حجة أولى تدحض التهمة لم أجد أحدًا نبه إلى حجيتها، وأخراهما أدت إلى اختلاف في تفسير الآية لم يكن له داع.

أما أولى الكلمتين فهي قوله تعالى (قُلْ!) إن المخاطب بهذا الأمر الجليل ذي الحرفين هو نفس الذي اتهموه بافتراء القرآن. فهذا الأمر وحده كاف في التنبيه إلى أن ما يقولونه لا يمكن أن يكون إلا باطلًا. إذ كيف يمكن أن يكون محمد افترى القرآن وهو مخاطب به مأمور فيه. وإذا كانت الحجة في الأمر (قُلْ) تحتاج إلى شيء من التأمل لتتضح، فمقول القول فيه حجة أخرى أوضح وأقطع: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾. وأمر التعجيز والإلزام في (فَأْتُوْا) لم يأت من محمد ﷺ، ولكن من الله الوكيل على كل شيء الذي وجه إلى نبيه الأمر (قُلْ). فالنبي في هذا مبلغ أمر الله كما هو في سائر القرآن. وما تعود المفسرون قوله من أن النبي تحدى العرب، فيه قصور عن الواقع، واختصار مخل بوجه

الحجـة. فـإن الحجـة هـي في أنـه تحـدى بـأمر الله، لا استنتاجًا من أنه ﷺ كان من العقل والحكمة بحيث لا يمكن أن يقدم على ذلك من نفسه، ولكن نصا صريحًا في الأمر الجليل (قُلْ)، الجاري على نسق في الآيات الخمس التي صدرت بذلك الاستفهام الإنكاري العجيب ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ثم أيضا في تلك الآية الكريمة التي كانت نزلت في سورة الإسراء تنبئ وتؤكد مرتين أن الجن والإنس مجتمعين عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (بني إسرائيل:٨٨). فكلمة (قُلْ) في آية الإسراء هذه ضرورية لإقامة الحجة بها، وإماطة احتمال المبالغة عنها. فالمخلوق يبالغ –من الإنس كان أو من الجن أو من الملائكة –، أما الخالق الحق القادر على كل شيء سبحانه فكلامه منزه عن المبالغة. إنما هو القول الحق: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (بني إسرائيل: ١٠٥). فإذا أخذت آية الإسراء تلك منقطعة عما قبلها وما بعدها قامت كلمة (قُلْ) فيها تحميها أن يظن بها عاقل أنها من قول محمد؛ بل قامت تشهد له ﷺ أولًا بالنبوة فيما تنبأت به من عجز الإنس والجن عن مثل القرآن، وثانيًا بالرسالة؛ لأنه مأمور بها أن يبلغ الآية الكريمة للناس. أما إذا أخذت متصلة بما قبلها وما بعدها فعندئذ لايكون هناك محل للتساؤل عمن هو الآخر بفعل الأمر (قُلْ)؛ لأن ضمير المتكلم في الآيات قبلها والآية بعدها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (بني إسرائيل:٨٩) لايمكن أن ينصرف إلا إلى الحق سبحانه.

والمفسرون على أن (القرآن) في آية الإسراء هو القرآن كله، مع أن سورة الإسراء هي الخمسون في ترتيب نزول الوحي بالسور[٦]. فالصواب إذن يقال أن التحدي كان أولًا بخمسين سورة ثم بعشر ثم بسورة، وكان الوحي قد نزل بقصار السور المكية إلا الانشقاق والانفطار.

أما الكلمة الأخرى التي لابد من وقفة عندها فهي كلمة (مفتريات) في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾. إنها لم ترد في ا لقرآن الكريم كله إلا في هذه الآية، أي في أول آية وردت فيها الكلمات الكريمة الثلاث ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. وهذا يجعل دلالتها واضحة تمامًا. فهي دحض للتهمة وإلزام لأهلها من نفس قولهم (افتراه). إن كان افتراء القرآن ممكنًا لمحمد في زعمكم فافتراء مثل سور القرآن ينبغي أن يكون أيسر وأمكن لكم وأنتم جميع. فافتروا إن استطعتم عشر سور مثل ا لقرآن واستعينوا بكل معين إلا الله،

فإنه لا يقدر على مثل القرآن إلا هو. هذا كله تؤديه كلمة مفتريات في موضعها من الآية بعد حكاية قولهم (افتراه) على ذلك الوجه الإنكاري العجيب. فهو إلزام ودحض للتهمة من أخصر طريق وأوضحه وأوثقه. وهو من أمثلة الإيجاز المعجز في القرآن. فالعجب أن يخطئ دلالتها مثل الزمخشري والفخر الرازي. أما الزمخشري فقد فهم الحجة، ولكنه أفسدها بجواب له على شبهة أوردها. قال: «فإن قلت: كيف يكون (مثله) وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى (قلت): معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى!». هذا مثل فريد للفكرة المتحكمة تنسى صاحبها الحجة التي أبصر من قبل. فلولا أن الزمخشري كان متسلطًا عليه فكرة أن إعجاز القرآن إعجاز بيان ونظم من غير نظر إلى المعنى، ما غفل عن قوله الذي كان قاله قبل إيراده تلك الشبهة مما يتفق بالضبط مع الحجة البالغة المنطوية في الآية والتي ذكرناها قبل. قال:

(«مفتريات» صفة لعشر سور. لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم على دعواهم وأرخى معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي، وأن الأمر كما قلتم فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام)، فهذا كلام من أصاب الحجة في (مفتريات) وإن لم ينتبه إلى الحجة في الأمر الجليل (قل). وكان مقتضاه أن يجيب على السؤال الذي أورده أن المثلية مستحيلة، فالمفترى على الله من الكلام لايمكن أن يكون مثل غير المفترى لافي جلال المعنى ولا في حسن البيان والنظم، ومن هنا الحجة الملزمة في (مثله مفتريات).

أما الفخر الرازي فلم يصب من دلالة (مفتريات) في الآية الكريمة شيئًا، واستنتج منها ما يناقض ما كان استنتجه من آيتي سورة يونس، فأنكر هنا ما كان أثبته هناك من أن العلوم الكثيرة وما إليها هي من وجوه إعجاز القرآن. وهذا وحده كان من شأنه أن ينبه مثله إلى أنه أخطأ مغزى الكلمة؛ لأن التناقض مستحيل على القرآن فلا يمكن أن تتناقض آياته فيما ينبغي أن تؤدي إليه، خصوصًا والفخر من المفسرين الذين يقولون: بأن آية هود قد نزلت قبل آية يونس. لكنه كالزمخشري كان تحت سلطان فكرة تصرف تفكيره هي أن إعجاز القرآن راجع لفصاحته بصرف النظر عن المعنى، فسارع إلى استنتاج ذلك من كلمة (مفتريات) في الآية الكريمة، وعلل ذلك بقوله (لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان الكلام صدقًا أو كذبًا) فوقع في خطأ أكبر حتى من ذلك التناقض، إذ يفضي إلى

إنكار إعجاز المعنى في القرآن. وهذا ما لا يمكن أن يكون مرادًا له، لأنه يقرر إعجاز المعنى في مواطن كثيرة من تفسيره إن صراحة وإن ضمنًا، وينزه القرآن عن الكذب والباطل كله بما نزهه الله. لكنه فيما يبدو كان متأثرًا بالعرف الكاذب الذي ساد بالتدريج بعد عصر الخلافة الراشدة من أن العبرة في الفصاحة هي بالصياغة والتعبير مهما كان المعنى. ولو انتبه وهو بصدد بحث إعجاز القرآن لتساءل كيف يمكن التسوية بين خبرين صادق وكاذب، أو بين حكمين حق وباطل، بفرض تعادلهما في الفصاحة من حيث الصيغة والتعبير؟ أو كيف تمكن المفاضلة بلاغيًّا بين عبارتين من الإصابة في الحكم إن لم تتفقا في المعنى، أو على الأقل في الموضوع؟ إن ذلك العرف الذي لا يزال سائدًا ليس هو العرف كما ينبغي أن يكون حسب ما أنزل الله في القرآن. والقرآن هو الحكم في كل ما يمكن أن يسترشد به فيه، حتى في قضايا الأدب، لا ما يشيع بين الناس. فالمبدأ الذي يهمل المعنى ويجعل الصياغة كل شيء عند تقدير الفصاحة في الموازنة بين كلامين هو مبدأ شيطاني لا قرآني. ويكفي في شيطانيته أنه استدرج علماء الأدب من المسلمين إلى استحسان ما جاء به مثل أبي نواس وبشار من شعر فاحش، لإحسانهما في التعبير، ففتح بذلك على المسلمين في تربية النشء باب فساد كبير.

* * *

الهوامش:

(١) ص ١٠ من الجزء الأول من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة مصطفى الحلبي.

(٢) ص ١٥ الجزء الأول.

(٣) المصحف الشريف طبعة المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٥٥هـ.

(٤) كتاب النبأ العظيم ص ١٤١-١٥٩ من الطبعة الأولى، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

(٥) هود: هي السورة (٥٢) في ترتيب النزول. وآية التحدي في أوائل السورة قبل أن ينزل شيء من قصصها فلا يشملها التحدي على قول من يقول: إن العشر المتحدى بها هي سور القصص الطويل وعاشرتها عنده هي سورة هود. ويبقى إحدى وخمسون سورة هي التي وقع التحدي بمثل عشر منها. وإطلاق حرية إخبار العشر بجعل المعجزات القرآنية المتحدى بها في الآية أكثر في الواقع من خمس بكثير.

(٦) فيما حققته لجنة الشيخ خلف الحسيني وهو يوافق بعض روايات السيوطي في الإتقان.

* * *

بيان الملكية

اسم المطبوعة : الداعي
الدورة النشرية : شهرية
الطابع والناشر : (مولانا) أبوالقاسم النعماني
الجنسية : هندي
العنوان : دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي
رئيس التحرير : محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
مالك المطبوعة : دارالعلوم ديوبند
أصادق على أن التفاصيل المذكورة أعلاه صحيحة حسب علمي واطلاعي (توقيع)
(مولانا) أبوالقاسم النعماني

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(سورة النساء ١٣١-١٦٨)

بقلم: رئيس التحرير

١- قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء:١٣١-١٣٣].

فإن قلت: قد تكرّرت جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا ثلاث مرّات متتاليات متّحدة لفظًا ومعنى أصليًا، ومختلفة الأغراض الكنائية المقصودة منها، وسبقتها جملة نظيرتهنّ: وهي ما تقدّم من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا﴾ (النساء:١٢٦). فحصل تكرارها أربع مرات في كلام متناسق. فما فائدة هذا التكرار؟

قلنا:الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الأولى السابقة فهي واقعة موقع التعليل لجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ (النساء:١١٦)، ولقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء:١١٦)، والتذييلِ لهما، و الاحتراس لجملة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (النساء:١٢٥)، كما ذكرناه آنفًا. ذكره ابن عاشور[1].

وقال أبو السعود: سيقت لتقريروجوبِ طاعة الله تعالى على أهل السماوات والأرضِ ببيانِ أن جميعَ ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقًا ومُلكًا لا يخرُج عن مَلَكوته شيءٌ منها فيجازي كلًا بموجب أعمالِه خيرًا أو شرًا.

وقيل: لبيان أن اتخاذَه عز وجل لإبراهيمَ عليه السلام خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك في شأنٍ من شؤونه كما هو دأبُ الآدميين فإن مدار خُلَّتِهم افتقارُ بعضِهم إلى بعض في مصالحهم؛ بل

لمجرد تكرمتِه و تشريفِه عليه السلام.

وقيل: لبيان أن الخُلة لا تخرجه عن رتبة العبودية.

وقيل: لبيان أن اصطفاءَه عليه السلام للخُلّة بمحض مشيئتِه تعالى أي له تعالى ما فيهما جميعًا يختار منهما ما يشاء لمن يشاء[٢].

وأما الثانية: فإنه تعالى قال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ (النساء:١٣٠) والمراد منه كونه تعالى جوادًا متفضلًا، فذكرعقيبه قوله: ﴿وللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والغرض تقريركونه واسع الجود والكرم. فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة. ذكره الرازي، والثعالبي، والبيضاوي، وابن عاشور، وأبو حيان، والقرطبي، وأبوالسعود، والآلوسي[٣].

وأما الثالثة: فقال تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد منه أنه تعالى منزّه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب المذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، فذكرعقيبه قوله: ﴿فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والغرض منه تقريركونه غنيًا لذاته عن الكل. ذكره الرازي، والطبري، والثعالبي، والبيضاوي، وابن عاشور وأبوحيان، والقرطبي، وأبوالسعود والآلوسي[٤].

وأما الرابعة: فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، والمراد منه أنه تعالى قادرعلى الإفناء والإيجاد، فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، وعلى أن يوجد قوما آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه، فالغرض ههنا تقدير كونه سبحانه وتعالى قادرًا على جميع المقدورات، وإذا كان الدليل الواحد دليلًا على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به على الثاني، ثم يذكره ثالثًا ليستدل به على المدلول الثالث، و هذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى، فظهرأن هذا التكرير في غاية الحسن و الكمال. وأيضًا فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذٍ لكون تخليق السماوات والأرض دالًا على أسرار شريفة ومطالب جليلة، فعند ذلك يجتهد الإنسان في التفكر فيها والاستدلال بأحوالها

وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى، ولما كان الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغيرالله إلى الاستغراق في معرفة الله، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده، لاجرم كان في غاية الحسن والكمال. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ معناه أنه تعالى لم يزل ولا يزال موصوفًا بالقدرة على جميع المقدورات، فإن قدرته على الأشياء لو كانت حادثة لافتقرحدوث تلك القدرة إلى قدرة أخرى ولزم التسلسل. ذكره الرازي، والطبري، والثعالبي، وابن عاشور،و أبوحيان؛ والقرطبي، وأبو السعود، و الآلوسي(٥).

الوجه الثاني: أنه كرر تأكيدًا؛ ليتنبه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غني عن العالمين. ذكره القرطبي(٦).

الوجه الثالث: قال الراغب: الأول: للتسلية عما فات. والثاني: أنّ وصيته لرحمته لا لحاجة، وأنهم إن كفروه لا يضروه شيئًا. والثالث: دلالته على كونه غنيًا. حكاه الزمخشري(٧).

الوجه الرابع: أمّا الأولى: فمعناه لله ما في السماوات وما في الأرض وهو يُوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيتَه، وأمّا الثاني فيقول: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ أي: هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون، وأمّا الثالث فيقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي: له الملك فاتخذوه وكيلًا ولا تتوكلوا على غيره. ذكره البغوي والنسفي(٨).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

فإن قيل: إن ظاهر قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مشعربأنه أمربتحصيل الحاصل، ولا شك أنه محال، فما فائدة ذلك؟

قلنا: ذكرالمفسرون وجوها وهي منحصرة في قولين:

القول الأول: أن المراد بقوله تعالى: ﴿آمنوا﴾ المسلمون، واستظهره أبوحيان ثم في تفسير الآية - تفريعًا على هذا القول - وجوه:

أولها: أن المراد منه يا أيها الذين آمنوا دوموا على الإيمان واثبتوا عليه، وحاصله يرجع إلى هذا المعنى: أيها الذين آمنوا في الماضي والحاضر آمنوا في

المستقبل، ونظيره قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلا اللَّهِ﴾ (محمد:١٩) مع أنه كان عالمًا بذلك. وكما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] أي بصرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به و برسوله، كما قال تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءامِنُواْ بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد:٢٨]. ذكره الرازي، والزمخشري، وابن عاشور، و أبو السعود، والبغوي، وأبو حيان – و رجحه – والشوكاني، وابن الجوزي، والنسفي والثعالبي والبيضاوي، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير(٩).

ثانيها: معناه: يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنواعلى سبيل الاستدلال. ذكره الرازي، وأبوحيان(١٠).

ثالثها: معناه: يا أيها الذين آمنوا بحسب الاستدلالات الجميلة آمنوا بحسب الدلائل التفصيلية. ذكره الرازي، والآلوسي(١١).

رابعها: معناه: يا أيها الذين آمنوا بالدلائل التفصيلية بالله وملائكته وكتبه ورسله آمنوا بأن كنه عظمة الله لا تنتهي إليه عقولكم، وكذلك أحوال الملائكة وأسرارالكتب وصفات الرسل لا تنتهي إليها على سبيل التفصيل عقولنا. ذكره الرازي(١٢).

خامسها: روي أن جماعة من أحبار اليهود – وهم عبد الله بن سَلام، و أسد وأسَيْد ابنا كعب، وثَعلبةُ بنُ قيس، وسَلاَم ابن أخت عبد الله بن سلام، وسَلَمةُ ابن أخيه، ويامين بن يامين، – جاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يارسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بماوراءه من الكتب والرسل، فقال ﷺ: بل آمنوا بالله وبرسله وبمحمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت هذه الآية فكلهم آمنوا. ذكره الرازي والبيضاوي، وابن عاشور، و أبوالسعود، وأبوحيان، والسيوطي، والبغوي، والآلوسي(١٣).

وذكره الزمخشري وتعقبه وردعليه فقال: فإن قلت: كيف قيل لأهل الكتاب ﴿وَالْكِتَـبِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلت: كانوا مؤمنين بهما فحسب، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب، فأمروا أن يؤمنوا بالجنس كله، ولأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيمانًا به؛ لأن طريق الإيمان به هو المعجزة، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلوكان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة، فلم يكن إيمانهم إيمانًا. وهذا الذي أراد عز وجلّ في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن

يَتَّخِـذُواْ بَـيْنَ ذَٰلِـكَ سَـبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ (النساء:١٥٠)[١٤].

سادسها: أنّ المقصود بأمرهم بذلك: إمّا زيادة تقرير ما يجب الإيمان به، وتكريرا استحضارهم إيّاه حتّى لا يذهلوا عن فهم أحرياء بأنَ يَسودوا غيرهم لسلامة إيمانهم من إنكارفضائل أهل الفضائل، ويدلّ لذلك قوله عقبه «و من يكفر بالله وملائكته وكتبه»، ويزيد ذلك تأييدًا أنّه قال: ﴿واليومِ الآخر﴾ فعطفه على الأشياء التي من يكفرُ بها فقد ضلّ، مع أنّه لم يأمر المؤمنين بالإيمان باليوم الآخر فيما أمرهم به، لأنّ الإيمان به يشاركهم فيه اليهود فلم يذكره فيما يجب الإيمان به، وذكَره بعد ذلك تعريضًا بالمشركين. ذكره ابن عاشور[١٥].

القول الثاني: أن المخاطبين بقوله ﴿ءامَنُواْ﴾ غيرالمسلمين، وفي تفسيرالآية تفريعًاعلى هذا القول وجوه:

أولها: أن الخطاب مع اليهود والنصارى يعني: ياأيها الذين آمنوا بما هم به مؤمنون من الكتب (التوراة والإنجيل) والرسل(موسى وعيسى) آمنوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَالْكِتَٰبِ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ (القرآن)؛ فإنكم قد علمتم أن محمدا رسول الله تجدون صفته في كتبكم، ﴿وَبِالْكِتَٰبِ الَّذِينَ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الذي تزعمون أنكم به مؤمنون، فإنكم لن تكونوا به مؤمنين وأنتم بمحمد مكذّبون؛ لأن كتابكم يأمركم بالتصديق به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابكم في اتباعكم محمدًا، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجه أمرهم بالإيمان بماأمرهم بالإيمان به، بعد أن وصفهم بما وصفهم بقوله: ﴿ياأيها الَّذِينَءامَنُواْ﴾. ذكره الطبري، والرازي، وأبوحيان، و ابن الجوزي، و أبوالسعود، والنسفي، والثعالبي، والبغوي، والقرطبي، والسيوطي[١٦].

ثانيها: أن الخطاب مع المنافقين، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُواْءامَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة:٤١). قاله مجاهد. وذكره الرازي، والزمخشري، وابن عاشور، و ابن الجوزي، وأبوحيان، والنسفي، والبيضاوي، والثعالبي والقرطبي، و البغوي، والآلوسي[١٧].

ثالثها: أنه خطاب مع الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا وجه النهار آمنوا أيضا آخره. ذكره الرازي[١٨].

رابعها: أنه خطاب للمشركين تقديره: يا أيها الذين آمنوا باللّات والعزى آمنوا بالله. ذكره الرازي، وأبوحيان، والقرطبي، والبغوي، والآلوسي[١٩].

خامسها: قيل: هم جميع الخلق أي: يا أيها الذين آمنوا يوم أخذ الميثاق حين قال: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾. ذكره أبوحيان، والآلوسي(٢٠).

سادسها: قيل: اليهود خاصة. ذكره أبوحيان(٢١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

فإن قلت: ما فائدة إعادة ذكر كفرهم وقد دل عليه قوله: (وكفرِهم بآيات الله) [النساء:١٥٥]، كما أنه أعيد حرف الجر الذي يغني عنه حرف العطف؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: أن القصد منه التأكيد، واعتبر العطف لأجل بُعْد ما بين اللفظين، و لأنَّه في مقام التهويل لأمر الكفر، فالمتكلّم يذكره ويُعيده: يتثبّت ويُرى أنّه لاريبة في إناطة الحكم به، ونظيرهذا التكريرقول لبيد:

فتَنَازَعَا سَبِطًا يَطِيرُ ظلالُه
كدُخان مُشْعَلَة يُشَبُّ ضِرامُها
مَشْمُولة غُلِثَتْ بنابت عرفج
كَدُخَان نار سَاطِع أسْنَامُها

فأعاد التشبيه بقوله: (كدُخان نَار) ليحقّق معنى التشبيه الأوّل. ذكره ابن عاشور(٢٢).

الثاني: أعيد (بكفرهم) حيث تكرّر الكفر منهم لأنّهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد - صلوات الله عليهم - فعطف بعض كفرهم على بعض أي فالكفر الثاني اعتبرمخالفًا للذي قبله باعتبار عطف قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا﴾. ونظيره قول عويف القوافي:

اللؤم أكرمُ من وَبْر ووالدِه
واللؤمُ أكرم من وَبْرٍ وما ولدا

إذْ عطف قوله: (واللؤم أكرم من وبر) باعتبار أنّ الثاني قد عطف عليه قولُه: (وما ولدا). ذكره الزمخشري، والبيضاوي، وابن عاشور، وأبوالسعود، وأبوحيان، والقرطبي، والشوكاني(٢٣).

الثالث: قيل: المعنى «وبِكُفْرِهِم» بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه. حكاه ابن الجوزي عن أبي سليمان الدمشقي وذكره الآلوسي، والقرطبي والشوكاني(٢٤).

الرابع: أنه أراد (وبكفرهم) بمحمد والقرآن، قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. ذكره ابن الجوزي(٢٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ

ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

فإن قلت: ما فائدة التكرار في قوله: (وَمَـــا قَتَلُوهُ) وقد نفى قتلهم له بقوله: (وَمَـا قَتَلُـوهُ وَمَـا صَلَبُوهُ)؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن ضمير النصب في قوله: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًـــا) عائد على عيسى عليه السلام والقتل مستعمل في حقيقته وقوله ﴿يَقِينًا﴾ يجوز أن يكون نصب على النيابة عن المفعول المطلق المؤكِّد لمضمون جملة قبله؛ لأنّ مضمون: ﴿وَمَـا قَتَلُـوهُ يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَـا صَـلَبُوهُ وَلَـٰكِـن شُـبِّهَ لَهُمْ﴾ يدلّ على أنّ انتفاء قتلهم إيّاه أمر متيقّن، فصحّ أن يكـون يقينًـا مؤكّـدًا لهـذا المـضمون. ويـصحّ أن يكون في موضع الحال من الواو في ﴿قَتَلُوهُ﴾ أي ما قتلوه متيقّنين قتْلَه، ويكون النفي منصبًّا على القيد والمقيّد معًا، بقرينة قوله قبله ﴿وَمَـا قَتَلُـوهُ وَمَـا صَـلَبُوهُ﴾، أي: هم في زعمهم قتْله ليسوا بمُوقنين بـذلك للاضـطراب الـذي حـصل في شخـصه حـينَ إمساك من أمسكوه. وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة.

ذكرهـذا الوجـه ابـن عاشـور، والبيـضاوي، والنـسفي وأبوالـسعود، والثعـالبي - و رجحـه - و البغـوي وابـن كثـير والزمخـشري وأبوحيـان - واستظهره - والقرطبي، والشوكاني والألوسي[٢٦].

الثاني: يجوز أن يكون القتل مستعملًا مجازًا في الـتمكّن مـن الـشيء والتغلّـب عليـه كقـولهم: قَتَـلَ الخمرَ إذامزجها حتّى أزال قُوّتَها، هـذا قـول الفـراء وابـن قتيبـة. قـال ابـن قتيبـة: وأصـل هـذا: أن القتـل للشيء يكـون عـن قهـرو استعلاء وغلبة، يقـول: فلـم يكـن علمهـم بقتـل المـسيح علـما أحيط بـه، إنـما كـان ظنـا. وكقـولهم: قَتَـل أرضًـا عالِمُهـا، ومـن شـعر «الحماسة» في بَاب الهجاء:

يَروعك من سعدِ ابن عمرو جُسومها
وتزهَد فيها حين تقتلُهَا خُبْرًا

وقول الشاعر:

كذلِكَ تخبرعنهَا العالمات بها
وقد قَتَلْتُ بعلمي ذلكم يَقينا

من قولهم: قتلت الشيء علمًا ونحرته علمًا إذا أردت أن تبالغ في علمك

وقول الآخر:

قتلتني الأيام حين قتلتها
خبُرا فأبْصِرْ قَاتلًا مقتولًا

وضـمير النـصب في ﴿قتلـوه﴾ عائـد إلى العلـم من قوله تعالى ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، فيكون

﴿يقينًا﴾ على هذا تمييزًا لنسبة (قتلوه). ولذلك كلّه أعقب بالإبطال بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ أي فلم يظفروا به وما حكي عن ابن الأنباري أنه في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وإن يقينًا منصوب برفعه الله إليه، والمعنى: بل رفعه الله إليه يقينًا، قال أبوحيان: فلعله لا يصح عنه. وقد نص الخليل على أن ذلك خطأ، لأنه لا يعمل ما بعد بل في ما قبلها. كما رده النحاس قائلا: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقينًا فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بَلْ» فيما قبلها لضعفها.

هذا الوجه: ذكره البيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي، وابن عاشور، والرازي، ورجحه – والبغوي، والقرطبي، والزمخشري وتعقبه قائلا: وفيه تهكم، لأنه إذا نفى عنهم العلم نفيًا كليًا بحرف الاستغراق. ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكمًا بهم(٢٧).

الثالث: قال ابن عباس والسدّي وجماعة: الضمير في قتلوه عائد على الظن. تقول: قتلت هذا الأمر علمًا إذا قطعت به وجزمت الجزم الذي لا يخالجه شيء. فالمعنى: و ما صح ظنهم عندهم وما تحققوه يقينًا، ولا قطعوا الظن باليقين. ذكره الطبري، والثعالبي، وابن الجوزي، والبغوي، وأبوحيان، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي(٢٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء:١٦٣].

فإن قيل: ما فائدة تكرير فعل الإيحاء؟

أجاب عنه أبوالسعود فقال: تكريرُ الفعلِ لمزيد تقريرِا لإيحاء والتنبيهِ على أنهم طائفةٌ خاصةٌ مستقلةٌ بنوع مخصوصٍ من الوحي(٢٩).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

فإن قيل: ما فائدة قوله: (تكليما) وقد فهم الغرض من الفعل؟

أجاب عنه الألوسي فقال: ﴿تَكۡلِيمًا﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز على ما ذكره غيرواحد، ونظر فيه الشهاب بأنه مؤكد للفعل فيرفع المجازعنه، وأما رفعه المجازعن الإسناد بأن يكون المكلم رسله من الملائكة، كما يقال: قال الخليفة كذا إذا قاله وزيره فلا، مع أنه أكد الفعل، والمراد به معنى مجازي كقول هند بنت النعمان في زوجها روح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان:

بكى الخز من روح وأنكر جلده

وعجت عجيجا من جذام المطارف

فأكدت«عجت» مع أنه مجاز لأن الثياب لا تعج. وما نقل عن الفراء من أن العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام لا يفي بالمقصود؛ إذ نهاية ما فيه رفع المجاز عن الفعل في هذه المادة، ولا تعرض له لرفع المجاز عن الإسناد فللخصم أن يقول: التكليم حقيقة إلا أن إسناده إلى الله تعالى مجاز ولا تقوم الآية حجة عليه إلا بنفي ذلك الاحتمال، نعم إنها ظاهرة فيما ذهب إليه أهل السنة، و الجملة إما معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآإِلَيْكَ﴾ (النساء:٣٦١) عطف القصة على القصة لاعلى - ﴿ءاتَيْنَآ﴾ (النساء:٣٦١) وما عطف عليه، وإما حال بتقديرقد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات، والمعنى أن التكليم بغيرواسطة منتهى مراتب الوحي وأعلاها، وقد خص به من بين الأنبياء الذين اعترفتم بنبوتهم موسى عليه السلام ولم يقدح ذلك فيهم أصلًا فكيف يتوهم أن نزول التوراة عليه جملة قادح في نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلًا مع ظهور حكمة ذلك(٣٠).

وذكر هذا القول أبوحيان وقال: قال ثعلب: لولا التأكيد بالمصدر لجازأن تقول: قد كلمت لك فلانًا بمعنى كتبت إليه رقعة وبعثت إليه رسولًا، فلما قال: تكليمًا لم يكن إلا كلامًا مسموعًا من الله تعالى(٣١).

قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا. فيُقال: أراد فلانٌ إرادةً، يُريد حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يُقال: أراد الجدار إرادةً لأنه مجاز غير حقيقة. وأنه لا يجوز في قول الشاعر:

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْني

أن يقول: قال قولا.

وذكره أيضا الطبري، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، و أبو السعود(٣٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

فإن قلت: ما فائدة تكرار فعل الإنزال؟

قلنا: ذكر المفسرون فيه فوائد:

الأولى: قال ابن عاشور: وقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِ﴾ وقع تحويل في تركيب الجملة لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل، ليكون أوقع في النفس. وأصل الكلام: يشهد بإنزال ما أنزله إليك بعلمه؛ لأنّ قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ لم يُفد المشهود به إلاّ ضمنًا مع المشهود فيه؛ إذ جيء باسم الموصول ليوصل بصلة فيها إيماء إلى المقصود، ومع ذلك لم

يذكر المقصود من الشهادة الذي هو حقّ مدخولِ الباء بعد مادّة شهد، فتكون جملة ﴿أنزله بعلمه﴾ مكمّلة معنى الشهادة. وهذا قريب من التحويل الذي يستعمله العرب في تمييز النسبة. وقال الزمخشري: «موقع قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ موقع الجملة المفسّرة لأنّه بيان للشهادة وأنّ شهادته بصحّته أنّه أنزله بالنظم المعجز». فلعلّه يجعل جملة ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ مستقلة بالفائدة، وأنّ معنى ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ بصحّة ما أنزل إليك، وما ذكرتُه أعرق في البلاغة [٣٣].

الثاني: قال الرازي: إنه تعالى لما قال: ﴿يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ بين صفة ذلك الإنزال وهوأنه تعالى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة، فصارقوله ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ جاريًا مجرى قول القائل: كتبت بالقلم وقطعت بالسكين[٣٤].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء:١٦٨].

من المعلوم أن الكفر ظلم فمافائدة ذكر الظلم في عقبه؟

والجواب من وجوه:

الأول: أتبع ظلمهم بكفرهم تأكيدا. ذكره البغوي[٣٥].

الثاني: وقيل: معناه كفروا بالله وظلموا محمدًا بكتمان نعته. ذكره البغوي[٣٦].

* * *

الهوامش:

(١) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢) أبوالسعود ٢/٢٣٩.

(٣) الرازي١١/٢٣٨؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٦٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي٥/٤٠٨؛ الآلوسي٥/١٦؛ أبوالسعود ٢/٢٤١.

(٤) الرازي١١/٢٣٨؛ الطبري٥/٢٠٥؛ الثعالبي في تفسيرالآية؛ البيضاوي ٢/٢٦٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي٥/٤٠٨؛ الآلوسي٥/١٦٣؛ أبوالسعود ٢/٢٤١.

(٥) الرازي١١/٢٣٨؛ الطبري٥/٢٠٥؛ الثعالبي في تفسيرالآية؛ البيضاوي٢/٢٦٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي٥/٤٠٨؛ الآلوسي٥/١٦٣؛ أبوالسعود ٢/٢٤١.

(٦) القرطبي٥/٤٠٨.

(٧) الزمخشري في تفسير الآية.

(٨) البغوي في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦٩.

(٩) الرازي ١١/٢٤٣؛ أبوالسعود ٢/٢٤٢؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ ابن كثير ٢/٣٤٠؛ القرطبي ٥/٤١٥؛

البيضاوي٢/٤١٧؛ البغوي تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦٩.

(١٠) الرازي ١١/٢٤٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(١١) الرازي ١١/٢٤٣.

(١٢) الرازي ١١/٢٤٣.

(١٣) الرازي ١١/٢٤٣؛ أبوالسعود ٢/٢٤٢؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ البيضاوي٢/٤١٧؛ السيوطي٢/٤١٧؛ البغوي تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦٩.

(١٤) الزمخشري في تفسير الآية.

(١٥) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٦) الطبري ٥/٢٠٩؛ الرازي ١١/٢٤٣؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/٢٤٢؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٤١٥؛ السيوطي٢/٤١٧؛البغوي تفسير الآية.

(١٧) الرازي ١١/٢٤٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٤١٥؛ البيضاوي٢/٤١٧؛ البغوي تفسير الآية؛الآلوسي٥/١٦٩.

(١٨) الرازي ١١/٢٤٣.

(١٩) الرازي ١١/٢٤٣؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٤١٥؛ البغوي تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦٩.

(٢٠) أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦٩.

(٢١) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٢) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢٣) الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٧٦؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ أبو السعود٢/٢٥١؛ أبوحيان في تفسير الآية. القرطبي ٦/٨. الشوكاني في تفسير الآية.

(٢٤) ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/١٠؛ القرطبي ٦/٨. الشوكاني في تفسير الآية.

(٢٥) ابن الجوزي في زادا المسير في تفسير الآية.

(٢٦) ابن عاشور في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٧٧؛ النسفي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البغوي في تفسيرالآية؛ ابن كثير٢/٣٩٦؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/١٠؛ الشوكاني في تفسيرالآية؛ أبو السعود ٢/٢٥٣؛ الآلوسي٦/١٢.

(٢٧) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الرازي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٧٧؛ البغوي في تفسيرالآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/١٠؛ أبوالسعود ٢/٢٥٣؛ الآلوسي٦/١٢.

(٢٨) الطبري ٦/١٦. والثعالبي في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ البغوي في تفسيرالآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/١٠؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/١٢.

(٢٩) أبوالسعود ٢/٢٥٧.

(٣٠) الآلوسي في تفسيرالآية.

(٣١) أبوحيان في تفسير الآية.

(٣٢) الطبري ٦/ ٢٠؛ البغوي في تفسيرالآية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ القرطبي ٦/١٧؛ الشوكاني في تفسيرالآية؛ أبوالسعود ٢/٢٥٨.

(٣٣) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣٤) الرازي ١١/٢٦٨.

(٣٥) البغوي في تفسير الآية.

(٣٦) البغوي في تفسير الآية.

* * *

الصـــــوم

بقلم: فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السباعي عامر

الصوم هو الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس بنية التقرب إلى الله تعالى، وصوم رمضان واجب على كل مسلم ومسلمة لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣) وقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ (البقرة:١٨٥). وقوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ (البقرة:١٨٧) والخيط الأبيض بياض النهار، والخيط الأسود سواد الليل.. وقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا».

وللصيام أركان وسنن وآداب وحكم ومبطلات وأعذار، وصيام شهر رمضان واجب على كل مسلم بالغ عاقل طاهر صحيح مقيم، فلا يصوم الكافر ولا الصبي ولا المجنوق ولا الحائض ولا النفساء ولا المريض ولا المسافر على تفصيل في بعض ذلك.

نعم، يسن لولي الصبي أن يأمره بالصوم إذا كان مطيقًا له وكان مميزًا، وكان سنه سبع سنين فأكثر، وللمسافر والمريض الذي يرجى شفاؤه الصوم إن شاءا، وهو خير لهما والإفطار إن شاءا، ثم يقضيان ما أفطراه من أيام أخر، والسفر المبيح للإفطار هو السفر لغير معصية كصلة الرحم أو التجارة، بشرط أن يكون سفرًا طويلا، وقدره تسعون كيلو مترًا وست مئة وثلاثون مترًا، فإن استوفى شروطه كان له الإفطار ولو كان سفره بالقطار أو الطائرة، ويحرم على الحائض والنفساء الصوم في مدة الحيض

والنفاس، وصومها باطل ومعصية كبيرة وعليها قضاء ما فاتها من رمضان بكل حال، ومعلوم أنها لو طهرت من حيضها صامت ما بقي من رمضان فتبيت النية لليوم القادم، فإن انقطع الحيض في أثناء النهار فالأفضل لها الإمساك، ويجب قضاء هذا اليوم؛ لأنها لم تكن في أوله من أهل العبادة، ولا يقضي المجنون ما فاته من رمضان مدة جنونه بخلاف المغمى عليه؛ فإنه يقضي زمن الإغماء - ولو استغرق الشهر كله - صامه كاملا؛ لأنه من أهل التكليف، ومن أركان الصوم النية، ويجب تبييتها من الليل في صوم الفريضة كرمضان وقضاء ما فاته من رمضان، وفي النذر لو نذر أيامًا يصومها، وفي كفارة اليمين، وأما صوم النفل فيصح بنية قبل الظهر ما لم يتناول مفطرًا، وليس له أن يقطع الصوم المفروض بغير عذر شرعي طارئ كالمرض لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (محمد:٣٣).

ومن هنا يحرم على الرجل إكراه زوجته على الإفطار بالجماع أو غيره إن كانت صائمة صومًا مفروضًا عليها كقضاء رمضان أو النذرة، ويجب عليها عدم تمكينه من ذلك، أما إن كان صومها مسنونًا فإن اللازم تمكين الزوج من جماعها وعدم مخالفة أمره لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لايحل لامرأة أن تصوم وزوجها حاضر إلا بإذنه»؛ فإنه يحمل على صوم النافلة، أما الصوم المسنون فيجوز قطعه إذا ترتب على قطعه مصلحة أو دفع مضرة كعداوة صديق إن لم يأكل من طعامه لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصائم المتطوع أمير نفس إن شاء صام وإن شاء أفطر» والنية محلها القلب، وليس للسان عمل فيها وتستحب، وأمره من يوقظه ليأكل أو ليشرب قبل الفجر كاف في حصول النية، وتجب النية لكل يوم؛ لأنه عبادة مستقلة لايفسد بفساد ما قبله أو بعده، وعند المالكية يكفيه أن ينوي صوم رمضان من أول الشهر، ومن أركانه الإمساك عن المفطرات جميع النهار، والمفطرات هي الأكل والشرب والقيء بشرط أن يكون عامدًا عالمًا بالحكم مختارًا، فمن أكل أو شرب ناسيًا فصومه صحيح، ويمسك عند تذكر أنه صائم إلى غروب الشمس، ولا قضاء ولا كفارة عليه، ومن غلبه القيء فصومه صحيح كذلك، ومن المفطرات الجماع ولو مع زوجته، وفيه بعد إفساد الصوم قضاء اليوم الذي أفسده.. ثم صيام ستين يومًا متتابعة حتى لو أفطر يومًا واحدًا، ولو مرض أعادها من أولها، فإن لم يستطع ذلك أطعم ستين

مسكينًا، لكل مسكين نصف قدح من غالب طعام البلد كالقمح، فتجزئ الكيلة عن ستة عشر يومًا. وله أن يطعم خبزًا أو أدمًا من أوسط ما يطعم أهله كالشأن في كفارة اليمين، وله أن يعطي عددًا من المساكين عدة مرات إلى أن يصيروا ستين مسكينًا كخمسة عشر يطعمهم أربع مرات، وعلى الذي جامع في نهار رمضان أن يمسك بقية اليوم فوق ما تقدم من القضاء والكفارة، وليس صحيحًا ما يعتقده بعض الناس من أن الجماع في ليالي رمضان لا يجوز؛ بل هو جائز لقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ (البقرة:١٨٧)، وكذلك قولهم: إن الزواج لا يصح في رمضان، فإن قولهم هذا باطل، نعم قال الغزالي: وسن أن يدخل عليها في شوال، والظاهر من حكمة ذلك القول أن يسلم له صوم رمضان؛ لأن بعض الشباب قد يطغى عليه سلطان ا لشهوة فيجامع امرأته نهارًا وهو إثم كبير.

ومن الإفطار إنزال المني بطريقة مباشرة له دخل فيهاولو بتقبيل أو تمكين غيره من لمسه، ويجب عليه في ذلك إمساك بقية اليوم وقضاء يوم مكان هذا اليوم، وزاد بعضهم الكفارة، وهي صيام ستين يومًا على نحو ما تقدم، وأما خروج المني باحتلام أو نظر ولو لأجنبية أو تفكير فلا يفسد به الصوم وإن حرم النظر والتفكير بالنسبة للأجنبية؛ لأنه معصية وبالنسبة للزوجة؛ لأنه إن علم من حاله أنه ينزل بمجرد النظر أو الفكر فليمنع نفسه من أسبابه، وهو النظر والفكر، والصوم صحيح على كل حال، ولو سمع أذان الفجر وهو يجامع وجب عليه أن ينزع فورًا، ويكف عن الجماع بمجرد علمه أنه الفجر، وصومه صحيح وإن أنزل؛ لأن إنزاله نشأ من جماع مأذون فيه شرعًا إلى آخر جزء من الليل.

فإن بقي بعد علمه بطلوع الفجر لحظة واحدة وجب عليه إمساك بقية اليوم، ووجب القضاء والكفارة كالذي جامع في أثناء النهار سواء بسواء، ولو جامع ليلًا ثم نام فلم يستيقظ إلا في نصف النهار فصومه صحيح؛ لأن الجنابة من الليل لا تفسد الصوم.

ومن المفطرات وصول شيء من منفذ مفتوح إلى الجسم كالأنف والفم والقبل والدبر ولو قليلا أو غير مأكول كأن يبتلع درهمًا أو حصاة، وإذا وصل إلى جوفه شيء من الماء بالمضمضة أو الاستنشاق في الوضوء، فإن كان في المرة الرابعة أو ما بعدها بطل الصوم، سواء وصل الماء عمدًا أو سهوًا؛ لأنه فعل

شيئًا لم يؤمر به، وعليه الإمساك وإعادة اليوم؛ وإن كان من المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة وبالغ في المضمضة والاستنشاق حتى وصل شيء من الماء جوفه، فالصوم باطل لمخالفته ما أمر به من عدم المبالغة، سواء كان وصول الماء عمدًا أو سهوًا، فإن وصل عمدًا من إحدى المرات الثلاث من غير مبالغة فالحكم كذلك، أما لو وصل سهوًا وكان من إحدى المرات الثلاث المسنونة فلا يبطل صومه، وكذلك حكم القبلة، فقد سئل عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال للسائل: أرأيت لو تمضمضت؛ وتوضيحه أنه لو قبَّل فأنزل بطل صومه، وإن لم ينزل لم يبطل صومه، وعلى الصائم أن يتجنب ذلك، وللصائم أن يستعمل السواك إلى الظهر، وبعد ذلك يكره استعماله لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». واختار النووي عدم الكراهة.

أما المنفذ غير المفتوح فلا يضر وصول شيء منه كالكحل في العين، والحقنة في الوريد أو العضل والماء من مسام الجلد لمن يريد التبرد ودفع الحر عن نفسه باغتسال أو انغماس في ماء لم يصل إلى جوفه من منفذ مفتوح، ولا يبطل صومه بوصول غبار طريق إلى جوفه إلا إذا تعمد ذلك، ومن المفطرات خروج شيء من الجسم ثم رجوعه إليه بعد ذلك كالنخامة إذا وصلت إلى حد الظاهر ثم ابتلاعها؛ فإنها تفسد الصوم، ويجب على الصائم أن ينزه نفسه عن الباطل والخوض مع الخائضين، وإذا كانت الغيبة والكذب والفحش وقول الزور محرمة في غير رمضان فهي فيه أفحش وأغلظ تحريمًا؛ لأن المطلوب فيه صوم الجوارح عن المعاصي لا صومها عن الطعام والشراب فقط لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». ومن السنة تعجيل الفطر إذا تأكد من غروب الشمس، ولا يشتغل بصلاة أو غيرها حتى يكسر حدة الجوع بثمرات أو بشيء من الماء، ثم يصلي المغرب ثم يأكل، ويحرم تحويل المذياع إلى محطة قطر آخر يفطر أهله قبلنا لنقل أذان المغرب من بلادهم قبل غروب الشمس في بلادنا؛ لما في ذلك من إفساد صوم الناس وإبهام المارة والجيران أن هذا أذان المغرب في بلادنا فيفطرون، فعليه إثمهم جميعًا، كما يحرم تحويل المذياع إلى بلد يفطر أهله بعدنا؛ لأن فيه تشكيك الناس في عادتهم وإيذائهم، وكذلك الشأن في تحويل المذياع عند الفجر، ويسن أن يقول الصائم عند إفطاره: الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت، ذهب

الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى، ويسن تأخير السحور اتباعًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنه أبلغ في التقوي على العبادة، وأنشط للجسم، وأعون على صلاته الصبح في وقته، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتسحر وقد بقي من الفجر ما يسع خمسين آية يقرؤها القارئ من كتاب الله تعالى.

ومن أعذار الصوم الحمل والرضاع والمرض والتقدم في السن ومزاولة الأعمال الشاقة العنيفة ممن لا يقدر عليها كالخباز والحجار ونحوها، ونجمل القول في ذلك مع ا لاستيفاء بعون الله تعالى، فالحامل والمرضع إن خافتا على أنفسهما كان لهما أن يفطرا، وتقضيان أيامًا بدل ما أفطرتاه كالمريض الذي يرجى شفاؤه، وإن خافت الحامل على الجنين والمرضع على الولد وأفطرتا لذلك فعليهما القضاء وعليهما الفدية، وهي إطعام مسكين عن كل يوم؛ لأنه إفطار انتفع به شخصان: الحامل والجنين، والمرضع والولد، وقيل: على الحامل القضاء فقط، وعلى المرضع القضاء والكفارة؛ لأنها أفطرت لشيء منفصل عنها وهو الولد. والشيخ الكبير والعجوز يفطر كل منهما، ويطعم عن كل يوم مسكينًا إن عجز عن الصوم، فإن عجز عن الإطعام بقي في ذمته فيطعم إذا أيسر، وقيل يسقط عنه الإطعام، والمريض ا لذي لا يرجى برؤه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينًا، ومثله المريض الذي أفطر في رمضان ولم يستطع القضاء في أي فصل من فصول السنة إلى أن جاء رمضان الثاني.

وصاحب العمل الشاق إن كان عنده من المال ما يكفيه مدة رمضان ترك العمل وأتم صومه، وإن استطاع أخذ إجازة فعل؛ ليصوم الفريضة، فإن تعذر عليه كل ذلك واحتاج إلى كسب العيش بيت النية كل ليلة، ومضى في صومه، فإن سلم له اليوم وأتمه فحسن، وإن زاد تعبه وخشي على نفسه أفطر وعليه القضاء، ومن مات وعليه صوم من رمضان أخرج من تركته عن كل يوم نصف قدح مصري ويعطى للمساكين، ويجوز أن يصوم عنه وليه.

وللصوم حكم كثيرة، منها ما يرجع إلى الأخلاق كتعليم النظام والصبر على الشدائد وقوة الإرادة والشعور والرحمة والإحسان على المساكين والمساواة بين الغني والفقير في عبادة عامة مشتركة، هي من أركان الإسلام، وبذلك يتم الارتباط والأخوة والتراحم بين الناس، وأين من يفهم هذا ويعمل به، وبعض هذه الحكم يرجع إلى الصحة

كإبعاد الفضلات والسموم الضارة المتخلفة من الأطعمة عن الجسم، وإعطاء فرصة للتخلص منها بواسطة الإخراج وأجهزته كالكليتين وغيرهما، ومن ذلك تعويده على الصوم في كل فصل؛ ليكتسب المناعة والتخصيص ضد كثير من الأمراض والظروف المفاجئة، ولذلك ربط الله الصوم بالسنة القمرية ليأتي رمضان على الناس في الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا صاموه على اختلاف هذه الفصول حصلت لهم الفائدة الصحية العظيمة، وتعودوا الجوع والظمأ في شدة الحر والبرد وما بينهما، والصوم هو العلاج الأساسي في كثير من الأمراض كالبول السكري والسمنة وضغط الدم والتهاب ا لمفاصل وبعض حالات ا لحمى وبعض أمراض الجهاز الهضمي إلى غير ذلك مما لا نطيل بذكر بعضه، وننصح للصائمين بالاعتدال في مقادير الطعام والشراب في الإفطار والسحور وتقليل ألوانها بقدر الإمكان وتجنب المواد الدهنية؛ فإن ذلك يذهب بفائدة الصوم الصحية، ويرهق المعدة ويؤذيها وبتقليل شرب الماء بقدر الامكان، والامتناع عن المثلجات صيانة لحرارة الجوف، وبعدًا بالإنسان عن أمراض الكبد والجهاز الهضمي، وبنوم جزء من النهار؛ فإن فيه قسطًا كبيرًا من الراحة وتقليل الجماع في ليالي رمضان؛ لأن الصوم ينقص وزن الجسم، والجماع مضعف كذلك، فالاعتدال مطلوب، ولذلك قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء». ومن حكم الصوم الدينية التشبه بالملائكة؛ فإنهم لا يأكلون ولا يشربون، وتقوية الروح على الجسم فيكون لها السلطان، ويزداد المرء صفاءً وإشراقًا، ويبعد عن أفق الشهوات التي تجعله أكثر شبهًا بالبهائم التي لاهم لها إلا الأكل والشرب؛ ومن حكمة تربيته الإخلاص وصدق المراقبة لله عز وجل؛ فإنه سر بين العبد وربه لا يعالج عليه الخلق، ولذلك اختص الله تعالى بجزائه من دون سائر الأعمال كما قال في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف قال الله تعالى: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك».

وفي رواية: «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحد كم فلا يرفثَ ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو

قاتلـه فليقـل: إني صـائم» أخرجـه الـستة (فـضائل الصيام). وينبغي للصائم أن يكثر من تلاوة القرآن واستماعه من غيره، فقد كان جبريل عليه السلام يـأتي إلى النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في رمـضان فيدارسـه القرآن، وينبغي أن يكثر من الصدقة وفعل الخير وقـضاء حـوائج المـسلمين لحـديث: «كـان النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمـضان حينما يأتيـه جبريـل فيدارسـه القـرآن، فلرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أجود بالخير من الريح المرسلة». وينبغي أن يتخلق بالحلم ويتحلى بالصفح والعفو ولا يتهور ويعتذر بالصوم، وإن سابه أحد أو قاتلـه فليقـل: إني صـائم، إني صـائم. وينبغـي أن يواظـب عـلى صـلاة الـتراويح، ويكثـر فيـه مـن الاعتكاف لاسيما في العشر الأواخر من رمضان، ويلتمس ليلة القدر في الوتر من الثلث الأخير في ليلة حاد وثالث وخامس وسابع وتاسع وعشرين؛ فإن في التعرض لها والظفر بها خيرًا كثيرًا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر:٣). وخمسة أيام يحرم صومها: يوم عيد الفطر، ويوم عيد الأضحى، وثلاثة أيام بعده: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، ويحرم صوم يوم الشك. فعن صلة بن ذخر قال: كنا عند عمار رضي الله عنه في اليوم الذي يشك فيه من شعبان أو رمضان، فأتينا بشاة مصلية، فتنحى بعض القوم فقال: إني صائم، فقال عمار: من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. أخرجه أصحاب السنن وصححه الترمذي.

ويسن صوم ستة أيام من شوال، وتتابعها أفضل، وجاز تفريقها في أثناء الشهر لقول الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال، فكأنما صام الدهر كله». ويسن صوم عرفة لغير الحاج، ويسن صوم يوم عاشوراء واليوم الذي قبله وبعده، ويسن صوم الاثنين والخميس إلا أن يكونا من الأيام المحرم صومها، ويسن صوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويكره صوم يوم الجمعة إلا أن يصله بما قبله أو بما بعده، كما يكره يوم السبت؛ لأن اليهود تعظمه، ويكره صوم يوم الأحد؛ لأن النصارى تعظمه، فإذا صام السبت والأحد جميعًا زالت الكراهة؛ لأن تعظيمها لم يقع في دين من الأديان، ولذلك يلغز ويقال ما شيئان يكره فعل كل منهما على انفراد فإذا فعلا جميعًا زالت الكراهة، والجواب ما قدمنا. والله سبحانه وتعالى يوفقنا لصالح القول والعمل.

* * *

رمضَان: شهر النُّورِ والتَّجْدِيدِ والإيمَانِ

بقلم: د. محمود مصطفى حلمي

رمضانُ، ذلك الشهرُ المُبَارَكُ الذي يتجلّى فيه نورُ الإيمانِ، وتزدانُ به نفحاتُ الروحانياتِ؛ ليسَ مجردَ فترةٍ زمنيةٍ على مسَار التقويم الهجري؛ بل هو فصلٌ من فصولِ التجديدِ والإصلاحِ الذي يُعيدُ للإنسانِ صفاءَ قلبِه ونقاءَ روحِهِ. إنه الشهرُ الذي يُمَكِّنُ المُؤمِنَ من الخضوعِ لنداءِ اللهِ تعالى، والعودةِ إلى مصدرِ الهدايةِ والرحمةِ، مُستحضِرًا معاني التوبةِ والمغفرةِ، والصدقِ والإخلاصِ في العبادةِ واستشعار لذة القرب والدعاء والمناجاة.

البُعْدُ الرُّوحانيُّ والمعنَويُّ لرمضان

في قلبِ رمضانَ تتفتحُ أزهارُ الروحانياتِ، وتتجلّى معاني التقوى والورع، فالصيامُ ليسَ مجردَ امتناعٍ عن الطعامِ والشرابِ؛ بل هو رحلةٌ داخليةٌ تُطهِّرُ النفسَ وتُزيلُ عنها شوائبَ الدنيا، فيقولُ الله تعالى في كتابهِ العزيز: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، فتشيرُ هذه الآيةُ الكريمة إلى أنّ الله تعالى قد اختَار القرآن الكريم ليتَنزّلَ على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الشهرِ المباركِ، فكانَ رمضانُ محطةً للإصلاحِ والارتقاءِ الروحيِّ؛ إذ يفتحُ للمؤمنينَ بابًا واسعًا لتدبرِ معاني آيات اللهِ، والتأمُّلِ في خلقهِ، والرجوعِ إليهِ بالتضرُّعِ والإخلاصِ.

وفي هذا السياقِ، يُؤَكِّدُ قول النبي ﷺ في الحديث:

«مَن صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1]، ويُبينُ هذا الحديثُ أنَّ الاجتهادَ في العبادةِ خلالَ رمضانَ ليسَ مجردَ طقسٍ شكليّ؛ بل هو فُرصَة سنَويّة للتوبةِ والتطهرِ، كما يفتح الله في رمضان باب المغفرةِ والرحمةِ لمن سارَ على هدي طَاعته عَزّ وجَلّ.

إنَّ تجربةَ الصيامِ تتخطّى الحدودَ الجسديَّةَ لتصلَ إلى أبعادٍ روحانيَّةٍ عميقةٍ، حيث يَتمَكّنُ المُؤمن أن ينأى بنفسهِ عن شهواتِ الدنيا ويُعيد ترتيبَ أولويّاته، فيُصبحُ كأنَّه يولَدُ من جديد، مُطهرًا قلبَه من كلِّ آثَار الذنوبِ، ومتوجهًا نحو اللهِ بخشوعٍ وإخلاصٍ. وهنا، يُثبتُ القرآنُ والسنةُ الشريفةُ أنَّ هذا الشهرَ ليسَ إلا فرصةً لتجديدِ العهدِ

مع الخالقِ، مما يُضفي على ليالي رمضانَ رونقًا خاصًّا في ظل القرآن تحديدًا، حيثُ تتضاعفُ الحسناتُ وتُغفَرُ الذنوبُ.

البُعْدُ الدَّعْوِيُّ والتَّرْبَوِيُّ في رمضان

يُعدُّ رمضانُ مدرسةً دعويةً تربويةً، إذ يتجلّى فيه النداءُ الخالصُ إلى اللهِ والتَّحْرِيرُ من قيودِ الحياةِ الدُّنْيَوِيَّةِ. ففي هذا الشهرِ الكريمِ، تُنَظِّمُ المساجدُ جلساتِ التَّلاوةِ والدروسِ والنداءاتِ التي تُنيرُ دروبَ المُؤمنينَ، وتُحفّزُهم على تعلُّمِ معاني الدينِ وتطبيقها في حياتِهم اليوميةِ، فيُشكّلُ لقاءَ الجماعةِ في صلاةِ التراويحِ والقيامِ تجربةً دعويةً فريدةً، حيثُ يجتمعُ المسلمونَ على كلمةِ اللهِ وسنةِ نبيهِ، فيُرسِخونَ بذلكَ روابطَ الأخوّةِ والمودةِ بينهم.

ولن نغفلَ أنَّ للمُؤثِّرينَ من العلماءِ والأدباءِ نصيبًا كبيرًا في إبرازِ معاني رمضانَ، فقد سطَّرَوا بأبياتٍ شعريةٍ وكلماتٍ ناصعةٍ صورًا بليغةً لتلكَ الليالي المُبارَكةِ، مستلهمينَ في ذلكَ من الروحانياتِ ما يحوّلُ الكلمةَ إلى جسرٍ يربطُ بين القلبِ والروحِ، فرمضانُ هو شهرٌ تتهافتُ فيهِ النفوسُ على العبادةِ، وتتضاءل فيهِ الأرواحُ عن متاعِ الدنيا.

فروح رمضانَ لطالما سعتْ إلى رفعِ الإنسانِ عن ملذاتِ الحياةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، والتركيزِ على معاني الروحانيَّةِ والصدقِ في العبادةِ، وبالتالي فإن تلك الدعوةَ التربويةَ تُعدُّ بمثابة تذكيرٍ دائمٍ للمُؤمنينَ بأنَّ الحياةَ الحقيقيةَ تكمنُ في طاعةِ اللهِ والتقربِ إليهِ، وليس في متاعِ الدنيا الزائلِ.

كما أنَّ أحدَ أركانِ هذه الدعوةِ هو توزيعُ زكاةِ الفطرِ، التي تُعدُّ تطهيرًا للنفسِ والمالِ معًا، وتُعززُ روحَ التكافلِ الاجتماعيِّ؛ إذ يقومُ المسلمونَ في هذا الشهرِ بتقديمِ يدِ العونِ والمساعدةِ للفقراءِ والمحتاجينَ، مما يُرسي أُسسَ التآزرِ والتراحمِ في المجتمعِ الإسلاميِّ، ويُؤَكِّدُ هذا العملُ الخيري المستندُ إلى التعاليمِ القرآنيَّةِ والنبويةِ أنَّ رمضانَ ليسَ مجردَ صيامٍ وقيامٍ؛ بل هو مدرسةٌ للتربيةِ على العطاءِ والمحبةِ، واستثمارٌ للوقتِ في ما يُقربُ الإنسانَ إلى اللهِ.

منزِلَة ليَالِي رمضَان

لا يكتملُ وصفُ رمضانَ دونَ الحديثِ عن لياليهِ المباركةِ، ولا سيما الليالي العشرُ الأخيرةُ التي يحتفلُ فيها المسلمونَ بليلةِ القدرِ؛ ذاك السرُّ العظيمُ الذي تفوقُ قيمتهُ ألفَ شهرٍ، فيقولُ الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (سورة القدر:٣)، فتشيرُ هذه الآيةُ إلى القيمة العَظِيمة لتلكَ اللَيلَة المُبَارَكة عند الله تعَالى وما يَجب أن تَكُون عليه في قلوبِ المؤمنينَ. وفي هذا السياقِ، تكثرُ الأدعيةُ والتضرعاتُ في تلك الليالي، وقد وردَ في الحديث الشريفِ ما يُبينُ فضلَ قيامِ ليلةِ القدرِ، إذ قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه»[٢]، ويُؤَكِّدُ هذا الحَديث أنَّ

الاجتهادَ في العبادةِ خلالَ هذه الليلةِ المباركةِ له أجرٌ عظيمٌ، وأنَّها فرصةٌ لا تُعوَّضُ للتقرُّبِ من اللهِ تعالى، حيثُ تتضاعفُ الحسناتُ وتُفْتَحُ أبوابُ المغفرةِ.

تُضفِي ليالي رمضَان جوًّا من السكينةِ والطمأنينةِ على نفوسِ المسلمينَ، إذ يصبحُ الليلُ وقتًا للتأملِ والذكرِ والدعاءِ، حيثُ تتبددُ همومُ الدنيا وتختلطُ الأحلامُ بالإيمانِ، وفي كل زاويةٍ من تلك الليالي، نجدُ أنَّ صوتَ الخاشعينَ يدعو إلى الاستغفارِ والتوبةِ، مؤكدينَ بذلكَ أنَّ ليلة القدرِ ليستَ مجردَ حدثٍ زمنيّ؛ بل هي محطةٌ للتجديدِ الروحيِّ وتأكيدُ العهدِ مع اللهِ.

البُعْدُ الاجتماعيُّ والأخلاقيُّ في رمضان

رمضانُ ليسَ فقط معتركًا للعبادةِ الفرديةِ؛ بل هو أيضًا مناسبةٌ اجتماعيةٌ تجمعُ بين أفرادِ المجتمعِ وتُعززُ من روابطِ الأخوّةِ والمحبةِ، فمن خلال موائد الإفطارِ والسحورِ التي تُقامُ في المنازلِ والمساجدِ، يتلاقى المسلمونَ لتبادلِ المحَبة والتَحيّات، ويُعبرونَ عن التضامنِ والمودةِ في أوقاتِ الإفطارِ. هذا التجمعُ الاجتماعيُّ الذي يُستمدُّ قوَّتهُ من قيمِ الإسلامِ في التكافلِ والتعاونِ، يُعدُّ انعكاسًا حيًّا للروحِ الجماعيَّةِ التي لطَالما تميزَتْ بها المجتمعاتِ الإسلامية.

كمَا أنّ توزيعَ زكاة الفطرِ، التي تُفرَضُ في نهايةِ شهرِ رمضانَ، يُعتبرُ من أهمِّ مظاهرِ هذا التكافلِ الاجتماعيِّ؛ حيثُ يُسهِمُ في تطهيرِ المالِ والنفسِ معًا، ويُعزّزُ من روحِ الإحسانِ والعطاءِ بين أفرادِ المجتمعِ، فيتجلّى في رمضان معنى العطاءِ والمشاركةِ التي تجمعُ شملَ الأمةِ على مبادئِ الحقِّ والإحسانِ. وفي هذا الإطارِ، تُقامُ العديدُ من الفعالياتِ والمبادراتِ الخيريةِ خلالَ هذا الشهرِ، حيثُ يُنظِّمُ أهلُ الخيرِ والمؤسساتُ الإسلاميةُ حملاتِ توزيعِ الطعامِ والملابسِ على المحتاجينَ، مما يُبرِزُ أنَّ رمضانَ ليسَ مجردَ صيامٍ وقيامٍ؛ بل هو أيضًا وقتٌ لتجسيدِ معاني الرحمةِ والتكافلِ الاجتماعيِّ. هذه المبادراتُ التي تستندُ إلى القيمِ الإسلاميةِ الأصيلةِ تُعطي للمجتمعِ دفعةً قويةً نحو الوحدةِ والتضامنِ، وتشكلُ نموذجًا يُحتذى به في مختلفِ المجتمعاتِ.

البُعْدُ الأدَبِيُّ والثَقَافِيُّ في تَصوِيرِ رمضان

لطالما كان لرمضانَ مكانةٌ خاصةٌ في الأدبِ والشعرِ العربيِّ، حيثُ استلهمَ الشعراءُ والأدباءُ من جمالِ هذا الشهرِ معاني الحبِّ والحنينِ إلى اللهِ، فصاغوا أبياتًا ناصعةً تعكسُ روحَ هذا الشهرِ وتُظهِرُ تجلياتِه الروحانيَّة، فطَالمَا عَبّرت هذه النصوصُ الأدبيةُ عن سكونِ الليالي الرمضَانيّة ورونقِها الإيمانيِّ، وتروي حكايات الصلة بين العبدِ وربِّه، مُستندةً في ذلكَ إلى آياتِ القرآنِ وأحاديثِ النبيِّ ﷺ.

أيضًا تناولَ الأدبُ الإسلاميُّ رمضَان بأسلوبٍ يجمعُ بين البلاغةِ والفصاحةِ والعمقِ الروحيِّ، حيثُ تُظهِرُ كلُّ كلمةٍ في تلك القصائدِ

معاني التفاني والإخلاص، فقال البحتري في قصيدته التي يهنئ فيها الخليفة العباسي المعتصم بالله بحلول شهر رمضان: «بالبر صمتَ وأنتَ أفضلُ صائمٍ، وبسنةِ اللهِ الرضيةِ تفطرُ»، وكذلك في قصيدة بعنوان «مرحبًا رمضَان» للشَاعِرة عَائِشة عَبد الرحمَن، المعرُوفة ببنْت الشَاطِئ، حيث تقول: «يَا مرحَبا شَهر الهُدَى، شَهر السّمَاحَة والنّدَى»، إنَّ مثل هذهَ الأبياتِ تُجسِّدُ العلاقةَ العميقةَ بين الإنسانِ وربِّه، وتُظهرُ كيفَ أصبحَ رمضانُ مناسبةً لإحياءِ الروحِ وبثِّ معاني المحبةِ في النفوسِ، مستندةً في ذلكَ إلى التراثِ الإسلاميِّ الذي لا يُضاهَى في عمقهِ وتأثيرِهِ.

كما أنَّ الفعالياتِ الثقافيةَ التي تُقامُ خلالَ رمضانَ تُعززُ من هذا البُعدِ الأدبيِّ، حيثُ تُنظّمُ الأمسياتُ الشعريةُ والندواتُ الثقافيةُ التي يتبادلُ فيها المثقفونَ والأدباءُ تجاربَهم وقصائدَهم في وصفِ جمالِ الشهرِ الفضيلِ، مما يُبرزُ الجانبَ الثقافيَّ الذي يكملُ الروحانيَّةَ في هذا الوقتِ. وفي هذا السياقِ، نجدُ أنَّ اللغةَ العربيةَ ببلاغتها الفريدةِ قد احتضنتْ التعبيرِ عَن رمضَان بكلِّ ما أوتيتْ من قوةٍ وإبداعٍ، لتظلَّ هذه الكلماتُ نبراسًا يُضيءُ الدروبَ للباحثينَ عن معاني الحبِّ والصفاء.

التأثيرُ النفسيُّ والتربويُّ للصومِ

يُعتبرُ الصومُ في رمضانَ تجربةً نفسيَّةً فريدةً تُعيدُ ترتيبَ الأفكارِ وتُحفّزُ الإنسانَ إلى التأمُّلِ في سلوكِ نفسهِ وتصحيحِ مساره، فامتناع الإنسانِ عن المأكولاتِ والمشروباتِ والذنوب لفتراتٍ طويلةٍ يُعزِّزُ من قوَّةِ إرادتهِ ويُطَهرُ جسده وروحه من آثارِ التدنيسِ الدُّنْيَوِيِّ. ففي كل يومٍ من أيامِ هذا الشهرِ يجدُ الصائمُ نفسهُ أمامَ فرصةٍ لتجديدِ العهدِ مع اللهِ، مُستحضِرًا في قلبهِ معاني الصبرِ واليقينِ، ومتذكِّرًا حديثَ النبيِّ ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ»[٣]، هذه المقولةُ تُبيِّنُ أنَّ الصومَ ليسَ مُجردَ طقسٍ دينيٍّ؛ بل هو حصنٌ منيعٌ يحمي الإنسانَ من شهواتِ الدنيا، ويُعلّمُهُ الانضباطَ والتحمّلَ في مواجهةِ تحدياتِ الحياةِ.

ومن الناحيةِ النفسيةِ، يساعدُ الصومُ الفردَ على اكتشافِ ذاتهِ، حيثُ يُتيحُ لهُ فرصةَ التوقفِ عن الانشغالِ بمشاغلِ الحياةِ الزائلةِ، والتأمُّلِ في معاني الوجودِ والغاية من خلقِه، فَتُعَد هذه الفترة بمثابةِ موعدٍ مع الذاتِ، حيثُ يُعيدُ الإنسانُ تقييمَ قيمِه ومبادئِه، ويكتشفُ في داخلِه مواردَ من القوةِ والإبداعِ، مما يُعزِّزُ من شعورهِ بالمسؤوليةِ تجاه نفسهِ ومجتمعهِ.

وفي إطارِ التربيةِ على الصبرِ والاعتمادِ على الذاتِ، يتحوّلُ رمضانُ إلى مدرسةٍ تربويةٍ تُعلمُ الإنسانَ قيمةَ النعمِ والاعترافَ بها، وتُذكّرهُ بأنَّ ما يملكُهُ ليسَ بحدِّ ذاتِهِ؛ بل هو أمانةٌ يجبُ أن يُشاركها مع الآخرينَ. هذه التجربةُ التربويةُ تُساهمُ في بناءِ شخصيةٍ متوازنةٍ تتسمُ بالاعتدالِ والوفاءِ، مما يُرسخُ

مبادئَ العدالةِ والإحسانِ في المجتمعِ.

رمزيةُ رمضانَ في حياةِ الأمةِ

يتجلّى رمضانُ في نظراتِ المؤمنينَ كرمزٍ خالدٍ للتجديدِ الروحيِّ والإصلاحِ الداخليِّ، فهو شهرٌ يحملُ في طياتهِ معاني الطهرِ والتوبةِ والمحبةِ. لقد أثبتَ القرآنُ والسنةُ أنَّ هذا الشهرَ هو وقتٌ مُقدَّسٌ يُمَكِّنُ الإنسانَ من السيرِ على دربِ تزكيَة النَفس، متذكِّرًا قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (سورة البقرة:١٨٥)، ومعتمدًا على ما جاء في الحديث الشريف «مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه»(٤).

إنَّ كلَّ لحظةٍ من لحظاتِ رمضانَ تُعدُّ فرصةً ثمينةً لاستشعارِ عظمةِ اللهِ وتجديدِ العهدِ معه، ولتأكيدِ أنَّ الطريقَ إلى السعادةِ والنجاحِ يكمنُ في التوبةِ والإخلاصِ في العبادةِ، فالروحانياتُ التي تغمرُ هذا الشهرَ تتغلغلُ في النفسِ، وتُنيرُ دروبَ الحياةِ، كما تُنيرُ آياتُ القرآنِ ونصوص الأحاديثِ طريقَ المُؤمنينَ إلى معارجِ السموِّ والارتقاءِ.

ومع كلِّ إفطارٍ وسحورٍ، ومع كلِّ صلاةٍ تُؤدى في المساجدِ وتجمعُ القلوبَ، ينبثقُ جمالُ رمضانَ في تجسيدِ معاني الوحدةِ والتآخي، والتأكيدِ على أنَّ الإنسانَ عندما يجتمعُ على كلمةِ اللهِ، فلا مكانَ للانقسامِ أو التفرقةِ. وهكذا، يصبحُ رمضانُ موعدًا للإصلاحِ الاجتماعيِّ والثقافيِّ، يجمعُ بين الماضي العريقِ والحاضرِ الواعدِ، ليُعيدَ رسمَ معالمِ مجتمعٍ قائمٍ على مبادئِ العدلِ والإحسانِ.

إنَّ رمضانَ ليسَ مجردَ شهرٍ للصيامِ والقيامِ؛ بل هو تجربةٌ متكاملةٌ تشملُ الروحانياتِ والدعوةَ والتربيةَ والأدبَ، وقد أثبتَ التأريخُ الإسلاميُّ أنَّهُ كانَ ولا يزالُ نقطةَ تحولٍ في حياةِ الأمةِ. ففي كلِّ عامٍ، يعيدُ هذا الشهرُ نفسهُ كرمزٍ للتجديدِ والإيمانِ، ليُلهِمَ المسلمينَ بأن يحرصوا على استثمارِ كلِّ لحظةٍ منهُ في العملِ الصالحِ والعبادةِ الخالصةِ للهِ تعالى.

ومن هذا المنطلقِ، ندعو كلَّ فردٍ من أفرادِ الأمةِ إلى اغتنامِ هذه الفرصةِ الثمينةِ، والسعيِ في كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ رمضانَ إلى استنهاضِ روحهِ وتطهيرِ قلبهِ، متمسكًا بآياتِ اللهِ وأحاديثِ نبيهِ ﷺ. فإنَّ هذه اللحظاتِ المضيئة هي التي تُعيدُ لكلِّ قلبٍ مكانَهُ، وتُغمرُ كلَّ روحٍ بنورِ الإيمانِ. فرمضَان هو شهرُ التجديدِ الذي يدعو الإنسانَ إلى التفكيرِ العميقِ في معاني الوجودِ، وتدبرِ آياتِ اللهِ في الكونِ، والسيرِ على دربِ الحقِّ بثباتٍ قوي وإيمانٍ لا يتزعزعُ.

* * *

الهوامش:

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيام، ٧٦٠.

(٢) رواه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

(٣) صحيح البخاري (١٨٩٤).

(٤) صحيح البخاري(٢٠١٤)، ومسلم (رقم ٧٦٠).

الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بقلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

أبــو إســحاق الــشيرازي: الــشيخُ، الإِمــامُ، القُدوة، المجتهد، شيخُ الإِسلام، جمالُ الدين، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف الفِيْرُوزَ آبادِي، الــشيرازي، الــشافعي، نزيــلُ بغــداد، المولــود ســنة ٣٩٣هـ، والمتوفى سنة ٤٧٦هـ عن ٨٣ سنة رحمه الله تعالى[١].

وُلِـدَ بِفَـيْرُوْزَ آبـاد: بلـدةٍ بفـارس، ونـشأ بهـا، وانتقل إلى مدينة شِيراز سنة ٤١٠هـ، وتفقه فيها على أبي عبـد الله البيـضاوي، وعبـد الوهـاب بـن رَامِيْن، وأخـذ بالبـصرة عـن الخَـرَزِي، ثـم دخـل بغـداد سـنة ٤١٥هـ، وقــرأ عــلى القــاضي أبي الطيــب الطــبري، ولازمه واشتهر به، وصار أعظَمَ أصحابه، ومُعِيدَ درسـه في حَلْقَتِـه. وقـرأ الكـلام والأصـول عـلى أبي حاتم القَزْويني.

وسَـمِعَ الحـديث مـن أبي عـلي بـن شـاذان، وأبي بكـر البَرْقاني، ومحمد بـن عُبَيد الله الحَرْجُوشِي، وأبي الطيب الطبري، وغيرهم.

وحـدَّث عنـه الخطيـب البغـدادي، وأبـو الوليـد البـاجي المـالكي الأندلـسي، والحُمَيـدي الأندلـسي صـاحب ابـن حـزم، وإسـماعيل بـن الـسمرقندي، وأبوبكر ابنُ الخاضِبَة، وأبو البَدْر الكَرْخي، والزاهدُ يوسف بن أيوب، وأبو نصر أحمد بن محمد الطُّوسي، وأبو الحسن بن عبد السلام وغيرُهم، وأحمدُ بن نصر ابن حِمَّان الهَمَذاني خاتمةُ من رَوَى عنه.

وكـان أبـو إسـحاق فـصيحًا بليغًـا حـادَّ الـذكاء جدًا، يُضرَبُ المثلُ بفصاحته وقوة مناظرته، وكـان خَطُّه في غاية الرداءة.

قـال القـاضي أبـو العبـاس الجُرْجـاني: كـان أبـو إسحاق الشيرازي لا يملك شيئًا من الدنيا، فبَلَغ به الفقرُ حتى كان لا يَجِد قُوتًا ولا مَلْبَسًا، ولقد كنا نأتيه وهـو سـاكن في القَطِيعة[٢]، فيَقُـومُ لنـا نـصفَ قومـة، ليس يعتدلُ قائمًا من العُرْي! كي لا يَظهر منه شيء!

وكنتُ أمشي معه، فتعلَّق به باقِلَّاني – بائعُ فُوْل –، وقال: يـا شيخ، كَسَرْتَني وأفقرتني، فقلنا: وكـم لك عنده؟ قال: حَبَّتانِ من ذَهَب أو حَبَّتانِ ونصف.

وكـان إذا بقـي مُـدَّةً لا يأكـل شـيئًا، صَـعِدَ إلى

النَّصْرِيَّة في أعلى بغداد، وكان له فيها صديقٌ باقِلَّاني، فكان يَثْرُدُ له رغيفًا ويُثَرِّيْهِ بماءِ الباقِلَّى – أي الفُول –، فربما صَعِدَ إليه وكان قد فَرَغ من بيع الباقِلَّى، ويُغلِقُ الباب، فيقفُ أبو إسحاق ويقرأ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[٣]، ويَرجِع!

ودخل يومًا مسجدًا ليأكل فيه شيئًا على عادته، فنَسِيَ دينارًا كان في يدِه، ثم ذكره في الطريق فرجع، فوجده في المسجد، فتركه ولم يَمَسَّهُ وقال: ربما وقع من غيري، ولا يكونُ ديناري.

وأَخرَجَ يومًا قُرْصَتَيْنِ من خُبز من بيتِه، فقال لبعض أصحابه: وكَّلتُك أن تشتريَ لي الدِّبْسَ بهذه القُرْصَة، على وَجْهِ هذه القُرْصَةِ الأخرى، فمَضَى الرجلُ وشَكَّ بأيِّ القُرْصَتَيْنِ اشتَرَى، فما أَكَل الشيخُ ذلك، وقال: لا أدري اشترَى بالتي وكَّلتُه أم بالأخرى؟!

وكان القاضي أبو الطيب الطبري شيخُهُ يُسمِّيهِ: حَمامَةَ المسجد، للزومهِ له واشتغالِهِ بالعلم طولَ ليلِهِ ونهارِه. قال أبو إسحاق: كنتُ أشتهي وقتَ طلبي للعلم: الثَّرِيدَ بماءِ الباقِلَاءِ سِنِينَ، فما صَحَّ لي! لاشتغالي بالدرس، وأَخْذِي السَّبْق بالغُدُوَات والعَشِيَّات[٤].

قال الشيخ أبو إسحاق: كنتُ أُعيدُ كلَّ قياس ألفَ مرة، فإذا فَرغتُ أخذتُ قياسًا آخَرَ، وهكذا. وكنتُ أُعيدُ كلَّ دَرْسٍ ألْفَ مرة[٥]، فإذا كان في المسألة بيتٌ يُستشهَدُ به، حَفِظتُ القصيدة كلَّها لِأَجلِه.

ولقد كان اشتغالُه أولَ طلبه أمرًا عُجابًا، وعملًا دائمًا، يقولُ من شاهده: عَجَبًا لهذا القلبِ والكَبِد كيف ما ذَابَا؟!

وكانت رُوحُهُ مَرِحةً إلى شديد ورعه، ومتين دينه، يداعب تلامذتَهُ ومجالسيه، بألطف أسلوب وأنْعَمِ نُكْتة. كان يومًا يمشي في الطريق، ومعه بعض أصحابه، فعَرَض له في الطريق كلب، فنهره أحَدُ أصحابه وزجره قائلًا: اخْسَأ، فنهاه الشيخ وقال: أما علمتَ أن الطريق بيني وبينه مشترَك.

وحكى أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر خطيبُ المَوْصِل، قال: لمَّا جئتُ إلى بغداد، قاصدًا الشيخ أبا إسحاق، رَحَّبَ بي، وقال: من أيِّ البلاد أنت؟ فقلتُ: من المَوْصِل، فقال: مَرْحَبًا أنت بَلَدِيِّي، فقلتُ: يا سيدَنا، أنا من الموصل، وأنت من فَيْرُوزَ آباد؟ فقال: يا ولدي، أمَا جَمَعَتْنَا سَفِينَةُ نُوح؟ فشاهدتُ من حُسنِ أخلاقه، ولطافتِهِ، وزهدِهِ، ما حَبَّبَ إليَّ لزومَهُ، فصَحِبتُهُ إلى أن مات.

وكان الشيخ أبو إسحاق يقول: من قرأ عليَّ مسألةً فهو وَلَدِي، ويقول: العَوَامُّ يُنسَبُون بالأولاد، والأغنياء بالمال، والعلماءُ بالعِلْم.

وكان يقول: العِلْمُ الذي لا يَنتفعُ به صاحِبُهُ: أن يكون الرجلُ عالمًا، ولا يكونَ عاملًا، ويُنشِدُ لنفسه:

عَلِمتَ ما حَلَّلَ المولى وحَرَّمَهُ

فاعمَلْ بِعلْمِك إنَّ العِلمَ بالعَمَلِ

قال القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري: حَمَلْتُ إليه فَتْوَى، فرأيتُهُ في الطريق، فمَضَى إلى دُكانِ خَبَّازٍ أو بَقَّال، وأَخذ دَوَاتَهُ وقَلَمَهُ، وكَتَب الجوابَ في الحال، ومَسَح القَلَمَ في ثوبه، وأعطاني الفتوى، وكان ذا نصيبٍ وافرٍ من مُراقبة الله تعالى، والإِخلاصِ، وإرادة إظهارِ الحقّ، ونُصْحِ الخَلْق.

وقال أبو الوفاء بنُ عقيل الحنبلي تلميذُه: شاهدتُ شيخَنا أبا إسحاق، لا يُخرِجُ شيئًا إلى فقير إلَّا أَحضَرَ النية، ولا يتكلَّمُ في مسألةٍ إلا قدَّمَ الاستعاذةَ بالله، وأخلَصَ القَصْدَ في نُصرة الحق، دُون التحسُّنِ للخَلْق،ولا صَنَّف شيئًا إلَّا بعدَما صَلَّى ركعات، فلا جَرَمَ شاع اسمُه، واشتَهَرَتْ تصانيفُهُ شرقًا وغربًا ببركةِ إخلاصِه. ويقال: كان مستجابَ الدعوة.

قال الإِمام أبو الحسن الماوَرْدِي، صاحبُ «الحاوي» و«أَدَبِ الدنيا والدين» و«الأحكامِ السُّلْطَانية»، وقد اجتَمَع بالشيخ أبي إسحاق، وسَمِعَ كلامَهُ في مسألة: ما رأيت كأبي إسحاق، ولو رآه الشافعي لتَجمَّلَ به.

قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومُدرِّسُ النِّظَامِيَّة[٦]، وشيخُ العَصْر، رحل الناسُ إليه من البلاد، وقصدوه، وتفرَّد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة، والطريقة المَرْضيَّة، جاءَتْهُ الدنيا صاغِرةً فأَباها، واقتَصَر على خُشونِة العيش أيامَ حياتِه، صَنَّف في الأصولِ، والفروع، والخلاف، والمَذْهَب، وكان زاهدًا، وَرِعًا، متواضعًا، ظريفًا، كريمًا، جَوَادًا، طَلْقَ الوجه، دائمَ البِشْر، مليحَ المحاورة، حدَّثَنا عنه جماعة كثيرة.

وقال المُوَفَّق الحنفي إمامُ أصحاب الرأي: أبو إسحاق أميرُ المؤمنين في الفقهاء. وقال أبو بكر محمد بن علي بن حامي الشاشي: أبو إسحاق حُجَّةُ الله على أئمة العصر.

وقال القاضي محمد بن محمد المَاهَاني: إمامانِ ما اتَّفَق لهما الحجُّ، الشيخُ أبو إسحاق الشيرازي، وقاضي القُضاة أبو عبد الله الدَّامَغَاني[٧]، فأما الشيخ أبو إسحاق فما كان له استطاعَةُ الزاد والراحلة، ولكن لو أراد الحجَّ لحمَلُوهُ على الأَحْدَاقِ إلى مكة، والدَّامَغَاني لو أراد أن يَحُجَّ على السُّنْدُسِ والإِسْتَبْرَقِ لأمكنه ذلك.

قال القاضي أبو الطيب الطبري: أبو عبد الله

الـدَّامَغَاني أعـرَفُ بمـذهبِ الـشافعي مـن كثـير مـن أصحابنا.

قال محمد بن عبد الملك ا لهَمَذاني: كان أبو عبد الله الدَّامَغَاني بهيَّ الصورة، حسَنَ المعاني في الدين، والعلم، والعقل، والحِلم، وكرمِ العِشرة، والمرُوءة، له صدقاتٌ في السِّرّ، وكان منصفًا في العلم، وكان يُوردُ في دَرْسِه من المُداعَبات والنوادر نظيرَ ما يُوردُ الشيخُ أبو إسحاق الشيرازي، فإذا اجتمعا صار اجتماعُهما نُزْهَة(٨).

وكان أبو إسحاق يَتعامَلُ مع الناس كبيرهم وصغيرهم بتركِ التكلف، حتى إنه حَضَر يومًا الدِّيْوَانَ، فناظَرَ مَعَ أبي نصر عبد الرحيم بن القُشَيْري، فأحَسَّ عبدُ الرحيم بثِقَلٍ في كُمِّ الشيخ أبي إسحاق، فقال: ما هذا يا سيدَنا؟ قال: قُرَصِيْ المِلَاح – جَمْعُ قُرْصَة، وهي خُبزة صغيرةٌ مبسوطةٌ مدوَّرة–، وكان أبو إسحاق قَشِفَ العيشِ متورِّعًا، وكان يَحمِلُها في كُمّه، ليأكُلَ إذا جاع منها.

وقال نِظامُ المُلْك – وأَثنَى على أبي إسحاق–: كيف حالي مع رَجُلٍ لا يُفرِّقُ بيني وبين نَهْرُوزَ الفَرَّاشي في المُخاطَبَة؟! قال لي: بارَكَ اللهُ فيك، وقال له لمَّا صَبَّ عليه الماءَ كذلك.

وكان رحمه الله تعالى نَحِيل الجسم، مع خَارِقِ ذكائِهِ وفطنتِه، فقال فيه الشاعرُ المُفْلِق عاصِمُ بن الحَسَنِ البغدادي:

تَراهُ من الذَّكاءِ نَحِيفَ جِسْمٍ
عليه من تَـوَقُّـدِهِ دَلِيلُ
إذا كان الفَتَى ضَخْمَ المَعَالِي
فليس يَضِيرُه الجِسْمُ النَّحِيلُ

وكان الشيخ أبو إسحاق غَضَنْفَرًا – أي أَسَدًا غلَّابًا قويًّا – في المناظرة، لا يُصطلَى له بنار، وقد قيل: إنه كان يَحفظُ مسائلَ الخلاف كما يَحفظُ أحدُنا الفاتحة. وأما الجَدَلُ فكان مَلِكَهُ الآخِذَ بزِمامِه، وإمامَهُ إذا أتى كلُّ واحدٍ بإمامِه، وبَدْرَ سَمَائِهِ الذي لا يَغتالُهُ النُّقْصَانُ عند تَمَامِه.

قال ا بن الجوزي: أخبرنا محمد بن ناصر، قال: أنشدني أبو زكريا بن علي السَّلَّار العُقَيلي:

كَفَاني إذا عَزَّ ا لحوادِثُ صَارِمٌ
يُنيلُنِيَ المأكولَ بالإِثْرِ والأَثَرْ
يَقُـدُّ ويَفْـرِي في اللقاءِ كأنه
لِسَانُ أبي إسحاقَ في مجلسِ النَّظَرْ

وكان إذا أخطأ أحدٌ من المُباحثين بَيْنَ يديه، قال: أيُّ سَكْتَةٍ فَاتَتْكَ؟! وإذا تكلَّمَ في مسألةٍ فسأله سُؤالًا غيرَ مُتوجِّهٍ قال:

سَارَتْ مُشَرِّقةً وسِرْتَ مُغَرِّبًا
شَتَّانَ بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

قـد حُفِظَـتْ لـه مُناظرتـانِ في بعـضِ المـسائل

الفقهية، جَرَتا بينه وبين عَصْرِيِّه وبلديِّه ونظيرِهِ في إمامةِ الحنفية: أبي عبد الله الدَّامَغَاني، وكانت هاتان المُناظرتانِ في عَزاءٍ جَمَعَهُمَا في بغداد، وحضَرَ إحداهما الإمامُ أبو الوليد ا لبَاجِي المالكي الأندلسي، وكان في وَقْتِ الطَّلَبِ والتحصيل، فسَجَّلها، وعنه نَقَلها التاج السبكي في ترجمة الإمام أبي إسحاق رحمهم الله تعالى(٩).

قال الباحي: «العادَةُ في بغداد – وكان ذلك في القَرنْ الخامس – أنَّ من أُصِيبَ بوفاةِ أحَدٍ ممن يَكْرُمُ عليه، قَعَد أيامًا في مسجدِ رَبَضِه – أي مَحَلَّتِه –، ويُجالسُهُ جيرانُه وإخوانُه، فإذا مَضَتْ أيامٌ عَزَّوْهُ، وعَزَمُوا عليه في التسلِّي والعَوْدَةِ إلى عادتِهِ مِن تَصَرُّفِهِ، فتلك الأيامُ التي يَقعُدُ فيها في مسجده، للعَزَاء مع إخوانِهِ وجيرانِه، لا تُقطَعُ في الأغلب إلا بقراءةِ القرآن أو بمُناظرةِ الفقهاء في المسائل.

فتوفِّيَتْ زَوْجةُ القاضي أبي الطيِّب الطبري، وهو شيخُ الفقهاء ذلك الوقتَ ببغداد، وكبيرُهم، فاحتَفَل الناسُ بمُجالَستِه، ولم يكد يَبقَى أحَدٌ مُنْتَمٍ إلى عِلْمٍ إلا حَضَر ذلك المجلسَ، وكان ممن حَضَر ذلك المجلسَ القاضي أبو عبد الله الصَّيْمَري، وكان زَعِيمَ الحنفية وشيخَهم، وهو الذي كان يوازي أبا الطيِّب في العلم، والشيخوخة، والتقدُّم.

فرغِبَ جماعة من الطلبة إلى القاضِيَيْنِ، بأن يتكلَّما في مسألةٍ من الفقه، يَسمَعُها الجماعةُ منهما، وتَنقلُها عنهما، وقلنا لهما – القائل الباجي –: إنَّ أكثَرَ مَنْ في المجلِسِ غريب، قصَدَ إلى التبرُّكِ بهما والأخذِ عنهما، ولم يتفق لمن وَرَدَ منذ أعوامٍ جَمَّة، أن يَسمَعَ مُناظرتَهما، إذْ كانا قد تَرَكا ذلك من أعوام، وفوَّضا الأمرَ في ذلك إلى تلاميذهما، ونحن نرغبُ أن يَتصدَّقا على الجَمْعِ بكلامهما، في مسألةٍ يُتجَمَّلُ بنقلِها، وحِفظِها، وروايتِها.

فأمَّا القاضي أبو الطيب فأظهَرَ الإسعافَ بالإجابة، وأما القاضي أبو عبد الله الصَّيْمَري، فامتَنَع من ذلك، وقال: من كان له تلميذٌ مثلُ أبي عبد الله الدامَغَاني، لا يَخرُجُ إلى الكلام، وها هو حاضر، من أراد أن يُكلِّمَهُ فليفعل، فقال القاضي أبو الطيِّب عندَ ذلك: وهذا أبو إسحاق من تلامذتي يَنُوبُ عني، فلما تقرَّر الأمرُ على ذلك، انتَدَب شابٌّ من أهل كازَرُوْن، يُدعَى أبا الوزير، فسأل أبا إسحاق الشيرازيَّ: الإعسارُ بالنفقةِ هل يُوجِبُ الخيارَ للزوجة؟ فأجابه...».

ثم ذَكَر ا لتاجُ السُّبْكي في ترجمة أبي إسحاق المُنَاظَرَتَيْن اللتين جَرَتا بينه وبين أبي عبد الله الدَّامَغاني في بغداد(١٠)، وذكر التاج السبكي بعدهما المناظرتين اللتين جَرَتا بين أبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين في نيسابور(١١)، وقد كان الفائزُ في

هـاتين المنـاظرتين مـن هـذين الإمـامين الـشافعيين الجليلين رضي الله عنهما الإمامَ أبا إسحاق، غَلَب إمامَ الحرمين بقوة الجدل، فقال له إمامُ الحرمين: ما غلبتني إلا بصَلَاحِك(١٢).

قال السمعاني: سمعتُ جماعةً يقولون: لما قَدِمَ أبو إسحاق نيسابور رَسُولًا تلقَّوْهُ، وحَمَل إمامُ الحرمين غَاشِيَتَهُ(١٣)، ومَشَى بين يديه كالخَدَم، وقال: أفتَخِرُ بهذا، وكان عامَّةُ المدرِّين بالعراق والجبالِ تلامذتَهُ وأتباعَه، وكفاهم بذلك فَخْرًا، وكان يُنشِدُ الأشعارَ المليحةَ، ويُوردُها، ويَحفظُ منها الكثير.

قال حَيْدَرُ بن محمود بن حَيْدَر الشيرازي: سمعتُ الشيخ أبا إسحاق يقول: خرجتُ إلى خراسان، فما دخلتُ بلدةً ولا قَرْيةً، إلا وكان قاضيها، أو مفتيها، أو خطيبُها، تلميذي أو من أصحابي.

وللإمام أبي إسحاق الشيرازي الفقيه الأصولي الجَدَلي الصُّوفي الورع الزاهد القدوة: أدَبٌ وشِعرٌ، قال السبكي: هو أعْذَبُ من الزُّلال، وأزهَرُ من الروض باكَرَهُ ماءُ الغَمام، وأبهى من زهر المنثور، وأزهَى من صفحات الخُدود، فمنه قوله رحمه الله تعالى:

سألتُ الناسَ عن خِلّ وَفِيّ
فقالوا ما إلى هذا سَبِيلُ!
تمسَّكْ إن ظَفِرتَ بوُدِّ حُرٍّ
فإنَّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ!

وحَضَر عند يحيى بن علي بن يوسف بن القاسم بن يعقوب الصوفي، بِرباطِهِ بغَزْنَة، يُعزِّيه عن ابن شيخِهِ المطهَّر بن أبي سعيد بن أبي الخير، وكان قد غَرِقَ في الماءِ بالنَّهْرَوَان(١٤)، فأَنْشَد:

غَرِيقٌ كأنَّ الموت رَقَّ لأخذِهِ
فَلَانَ له في صُورة الماءِ جَانِبُهْ
أبىَ اللهُ أن أنساه دهري فإنه
توفَّاه في الماء الذي أنا شارِبُهْ

وقال ابن الجوزي: أنبأنا أبو نصر أحمد بن محمد الطُّوْسِي، قال: صَحِبتُ الشيخَ أبا إسحاق الشيرازي في طريق، فأنشدني:

إذا طال الطريقُ عليك يومًا
فليس دَوَاؤُه إلا الرفيقُ
تُحدِّثُهُ وتشكو ما تُلاقِي
ويَقْرُبُ بالحديثِ لك الطريقُ

ومن شعره:

أُحِبُّ الكأسَ من غير المُدَامِ
وأَلْهُو بالحِسَانِ بلا حَرامِ(١٥)
وما حُبِّي لِفاحِشةٍ وَلكِنْ
رأيتُ الحُبَّ أخلاقَ الكِرامِ

وأورد له محب الدين ابن النجار قولَهُ رحمه الله

تعالى:

قِصَرُ النَّهارِ وشِدَّةُ البَرْدِ

قد حَالَ دُونَ لِقاءِ ذي الوُدِّ

فاعْذُرْ صَدِيقًا في تأخُّرِهِ

حتى يَجيئَك أوَّلُ الوَرْدِ

وقال ابن النجار أيضًا: أنشدَني شهابُ الدين الحاتمي بهَراةَ، قال أنشدَنا أبو سَعْد السمعاني، قال: أنشدَنا أبو المظفَّر شَبِيبُ بنُ الحُسَين القاضي، قال: أنشدني أبو إسحاق الشيرازي لنفسِه:

جاء الربيعُ وحُسنُ وَرْدِهْ

ومَضَى الشتاءُ وقُبْحُ بَرْدِه

فاشرَبْ على وَجْهِ الحبـ

ـيبِ ووجَنَتَيْهِ وحُسْنِ خَدِّهْ

قال ابنُ السمعاني: قال لي شَبِيبٌ بعدَ ما أنشدني هذين البيتين: أُنْشِدا عند القاضي عَيْنِ الدَّوْلَة حاكِم صُوْر -بَلْدَةٍ على ساحِل البَحْر جنوب بيروت -، فقال لغلامه: أحضِرْ ذاك الشأنَ، يعني الشراب، فقد أفتانا به الإمامُ أبو إسحاق.

فبكى أبو إسحاق، ودَعَا على نفسِه، وقال. ليتَني لم أقل هذين البيتين قَطّ، ثم قال لي: كيف نَرُدُّهما من أفواهِ الناس؟ فقلتُ: يا سَيِّدي، هيهات!! قد سارَتْ بهما الرُّكْبَان.

ولأبي إسحاق رحمه الله تعالى شِعرٌ كثير غيرُ هذا، ذُكِرَ في مَصَادِرِ ترجمتِه، اكتفَيتُ منه بما أوردتُهُ هنا، رَوْمًا لتخفيفِ التطويل.

وتوفي أبو إسحاق رحمه الله تعالى في بغداد، ليلة الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، من سنة ٤٧٦هـ، في دار المظفَّر ابن رئيس الرؤساءِ بدار الخلافة من الجانب الشرقي، وغسَّلَهُ الإمامُ أبو الوفاء بنُ عقيل الحنبليُّ تلميذُه، وأوَّلُ من صلَّى عليه أميرُ المؤمنين المقتدي بأمْرِ الله، فأحضره إلى داره، ثم صُلِّي عليه بباب الفِرْدَوس لأجل نِظام المُلْك، وتقدَّم في الصلاة عليه أبو الفتح بن المظفَّر بن رئيس الرؤساء، وهو حينئذٍ نائبٌ بالديوان، ثم حُمِلَ إلى جامع القَصْر فصلَّى عليه صاحبُهُ أبو عَبْدِ اللهِ الطَّبَرِيُّ، ودُفِنَ بمقبرة بابا أبْرَز، وعُمِلَ العزاءُ بالنِّظاميَّةِ.

ورثاه العلماءُ والشعراءُ والأدباء بقصائدَ رَنَّانة وأنفاسٍ حزينةٍ مُحترِقة ذُكِرَ طَرَفٌ منها في ترجمته، شادوا فيها بمناقبه وفضائله وعلومِهِ وآثاره رحمه الله تعالى، قال الحافظ الذهبي: ومات أبو إسحاق ولم يُخلِّف دِرْهمًا، ولا عليه دِرْهَم، وكذا فليكن الزُّهد، وما تَزَوَّج فيما أعلم(١٦)، وبحُسنِ نيَّتِهِ في العلم اشتهرَتْ تصانيفُه في الدنيا، مثلُ «المهذب»، و«التنبيه» و«اللُّمَع في أصول الفقه»، و«شرح اللمع» و«التبصرة في أصول الفقه» و«المعونة في الجدل»

و«المُلَخَّص في أصول الفقه»، و«طبقات الفقهاء»، و«النُّكَت في الخلاف»، و«نُصْح أهل العلم»، وغيرِ ذلك، رحمةُ الله تعالى عليه.

* * *

الهوامش:

(١) مصادر ترجمته: «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ١٨: ٤٥٢-٤٦٤، و«المنتَظَم» لابن الجوزي ٩:٧-٨، و«طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي ٤: ٢١٥-٢٢٩، و«الوافي بالوَفَيَات» للصَّفَدِي ٦: ٦٢-٦٦، و«المستفاد من ذيل تأريخ بغداد» لابن الدمياطي ٤٢-٤٦، و«الوفَيَات» لابن خَلِّكان ١: ٢٩-٣١، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ٢: ١٧٢-١٧٤، و«النجوم الزاهرة» لابن تَغْرِي بَرْدِي ٥: ١١٧-١١٨.

ولـلأخ الفاضل العلَّامة الأصولي الفقيه الشافعي الشيخ الدكتور حسن هيتو، كتابٌ مطبوعٌ خاصٌ بترجمة الإمام أبي إسحاق الشيرازي ودراسةِ آثارِه، وعنوانه: (الإمام الشيرازيُّ، حياتُه وآراؤُه ا لأصولية).

(٢) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» ٤: ٣٧٦ «القطيعة بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء ساكنة، يقال: استَقطع فلانٌ الإمامَ قطيعة من عَفْو البلاد، فأقطعه إياها، إذا سأله أن يُقطعَها له مفروزةً محدَّدة، يُملِّكُهُ إياها. وقد أقطع المنصور لمَّا عمَّر بغداد قُوَّادَهُ ومواليه قطائع، وكذلك غيرُهُ من الخلفاء، وقد أُضِيفَ كلُّ قطيعة إلى واحد من رجل أو امرأة.

وأنا أذكرُ من أُضِيفَ إليه هاهنا، على حروف المعجم ليسهل الطلب إن شاء الله تعالى. قطيعةُ إسحاق، قطيعةُ أم جعفر، قطيعةُ بني جِدَاد، قطيعة الرقيق، قطيعة الربيع، قطيعة ريسانة، قطيعة زهير، قطيعة ا لعجم، قطيعة العكي، قطيعةُ عيسى، قطيعةُ الفقهاء، قطيعةُ أبي النَّجْم، قطيعةُ النصارى».

(٣) من سورة النازعات، الآية ١٢.

(٤) المراد بالسَّبْق هنا: إعادة الدرس السابق. قال العلَّامة برهان الدين الزرنوجي في كتابه «تعليم المتعلم طَرِيقَ التعلُّم» ص٩٩-١٠١ «فَصْل في بِداية السَّبْق، وقَدْرِه، وتَرْتِيبِه. كان أستاذنا يوقف بداية السَّبْق – ومعناه هنا: العَوْدَةُ إلى الدرس والاختلافُ والتردُّدُ إلى مَجالس التعليم لتلقي العلم – على يومِ الأربعاء، ويروي في ذلك حدِيثها: «ما من شيء بُدِئَ يوم الأربعاء إلَّا وقد تم» – قال عبد الفتاح: هو حديث موضوع – .

وأما قَدْرُ السَّبْق فقال مشايخنا: ينبغي أن يكون قَدْرُ السَّبْق – والسَّبْقُ هنا بمعنى المَقْرُوءِ في الدَّرْس – للمبتدئ قَدْرَ ما يُمكن ضبطُهُ بالإعادة مرتين بالرفيق، ويزيد كل يوم كلمة، حتى إنه وإن طال وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق، ويزيد بالرِّفق والتدريج.

وأما إذا طال السَّبْقُ في ا لابتداء، واحتاج إلى الإعادة عَشْرَ مرات، فهو في الانتهاءِ أيضًا يكون كذلك، لأنه يعتاد ذلك ولا يترُكُ تلك الإعادة إلا بجهد كثير – فيُبطئ فهْمُهُ، ويَتبلَّدُ ذهنُه –، وقد قيل: السَّبْقُ حَرْف، والتكرارُ أَلْف». أي تعلَّمْ قليلاً، وكرِّرْ ما تعلمته كثيرًا.

(٥) هكذا العبارة في «سير أعلام النبلاء» للذهبي ١٨:٤٥٨ و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٤:٢١٨. وفي «المنتظم» ٩:٧ و«صفة الصفوة» لابن الجوزي ٤:٦٦، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ٢:١٧٢ هكذا: «وكان يُعيدُ في بدايتِهِ مِئة مَرَّة».

(٦) هي المدرسة الكبرى الراقية العُلْيا، التي بناها نِظامُ المُلْكِ في بغداد لأبي إسحاق الشيرازي، بدأ ببنائها سنة ٤٥٧، وتمَّتْ بناءً سنة ٤٥٩، قال القاضي: ابن خَلّكان في «وفَيَات الأعيان» ٣:٢١٧، في ترجمة الإمام ابن الصباغ: «أبي نصر عبد السَّيِّي بن محمد بن عبد الواحد، الفقيه الشافعي فقيهِ العراقَيْنِ في وَقْتِه، وكان يُضاهِي الشيخَ أبا إسحاق الشيرازي في مَقامه العلمي:

«ذَكَر أبو الحسن محمدُ بنُ هلال بن الصَّابِي، في «تأريخه»: أنَّ المدرسة النظامية، بُدِئَ بعمارتها في ذي الحجة من سنة ٤٥٧، وفُتِحَتْ يومَ السبت عاشِرَ ذي القَعْدة من سنة ٤٥٩. وكان نِظامُ المُلْكِ أمَرَ أن يكون المدرِّسُ فيها أبا إسحاق الشيرازي، وقرَّرُوا معه الحضورَ في هذا اليوم للتدريس، فاجتمع الناسُ ولم يَحْضُر أبو إسحاق، وطُلِبَ فلم يُوجَد، فنُفِّذَ إلى أبي نصر بن الصباغ فأُحضِر، ورُتِّبَ بها مُدَرِّسًا.

وظهر الشيخُ أبو إسحاق في مسجدِه، ولِحِقَ أصحابَه من ذلك من الغَمّ ما بانَ عليهم، وفَتَرُوا عن حُضورِ دَرْسِه، وراسَلُوه إن لم يُدرِّس بها مَضَوْا إلى ابن الصباغ وتركوه، فأجاب إلى ذلك، وعُزِلَ ابنُ الصباغ، وجَلَس أبو إسحاق يوم السبت مستهل ذي الحِجَّة، فكانت مُدَّةُ تدريسِ ابنِ الصباغ عشرين يومًا». انتهى. ودرَّس فيها أبو إسحاق حتى وفاته ولم يَتناوَلْ جَامِكيَّةً أصلًا». الجامِكيَّة: رَوَاتِبُ خُدَّامِ الدولة، كلمةٌ فارسية.

(٧) هو العلَّامة البارع مفتي العراق قاضي القُضَاة الحنفي محمد ابن علي بن محمد.

(٨) هذا المقطع من ترجمة الدامَغاني من «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي ١٨:٤٨٦.

(٩) في «طبقات الشافعية الكبرى» ٤: ٢٤٥-٢٥٢.

(١٠) انظرهما إذا شئت في ٤: ٢٣٧-٢٥٢.

(١١) انظرهما إذا شئت في ٤: ٢٥٢-٢٥٦، و٥: ٤٠٩-٢١٨ في ترجمة إمام الحرمين.

(١٢) قال عبد الفتاح: نعم وليكن كما قال: ما غَلَبَهُ إلا بصلَاحِهِ، فأكرِمْ بالصَّلَاح مُعينًا ونصيرًا، فمعنى هذا أنَّ صلاحَ أبي إسحاق كان يَزيدُ في اهتدائِهِ إلى الحُجج التي يَتفوَّقُ بها على مُناظِرِه إمامِ الحرمين، وكم للصلاح من يَدٍ عند أهلِه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

(١٣) من معاني «الغَاشِيَة» كما في «القاموس»: السَّرْجُ، والسيفُ وحَدِيدةٌ فوقَ مؤخرة الرَّحْل. وفسَّرها محقق «النجوم الزاهرة» ٥:١١٧ بقوله: «الغاشية: الغِطاءُ، من استغشى بثوبه وتغشَّى به: تَغَطَّى».

(١٤) النَّهْرَوان: اسم مكان قرب بغداد وواسط من الجانب الشرقي.

(١٥) قوله: (وألْهُو بالحِسَانِ) هكذا الصواب، ووقع في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٨:٤٦٢ (وألهوا بالحِسَاب بلا حَرام) وهذا تحريفٌ باردٌ سَمِجٌ! وكيف قَبِلَهُ وضَبَطَه هكذا المحققان؟! وكيف يَلْهُو بالحِساب؟ وإنما هو بالحِسَان، بالنون، بدليل ما قبله وما بعدَهُ.

(١٦) وأما ما نُقِلَ عن الفيروزآبادي صاحب «القاموس ا لمحيط»: (محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي)، من أنه كان يَرفعُ نسبَهُ إلى أبي إسحاق الشيرازي فاستغربه العلماءُ وأنكروه، ومنهم تلميذُهُ الآخِذُ عنه التقي الفاسي في «العِقدِ الثمين في تأريخ البلد الأمين» ٢:٤٠٠.

ومنهم تلميذُه الحافظ ابن حجر، فقد نَقَل السخاوي في «الضوء اللامع» ١٠:٨٥، استغرابَ ذلك عن الفاسي واستنكارَه، وأتبَعهُ بقوله: «ولذا قال سيخنا – الحافظُ ابنُ حجر-: لم أزل أسمع مشايخنا يطعنون في انتسابه إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب «التنبيه» مستندين إلى أن أبا إسحاق لم يُعقِبْ» ثم قال السخاوي: «وقال الجمالُ بنُ الخياط فيما نَقَلهُ عن خَطِّ الذهبي في الشيخ أبي إسحاق: إنه لم يتأهَّل ظنًّا». انتهى.

وقال أبو بكر بن قاضي شُهْبَة الشافعي، في كتابه «طبقات الشافعية»، ٤:٨٠، في ترجمة صاحب «القاموس»: «كان يَرفعُ نسبَهُ إلى الشيخ أبي إسحاق، صاحب «التنبيه» ويقول: إنَّ جَدَّه فضْل الله: وَلَدُ الشيخ أبي إسحاق، ولا يُبالي بما يشاعُ بين الناس أن الشيخ لم يتزوج، فَضْلًا عن أن يُعقِب».

* * *

أم المؤمنين خديجةُ بِنتُ خُوَيْلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

بقلم: الدكتور/ أحمد خليل جمعة

الطَّاهرةُ المُباركةُ:

* في رحاب الطُّهْر والبركة، وفي ثنايا الصَّفاء والنَّقاءِ، نعيشُ سعداءَ في ظلالِ سيرة أمِّنا الطَّاهرة خديجة بنت خُويلد بن أسد القرشية الأسدية، زوج سيِّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ. ومَنْ مِنا يستطيع أَنْ يوفي أمَّ المؤمنين خديجة حقها أو جزءًا منه؟! ولكنا نحاول أن نلمسَ البركةَ والخير باقتطافِ عناقيدَ مباركةٍ من حياتها الفيّاضة بالعطاء.

* نشأت خديجةُ على التَّخلُّق بالفضائل والتَّحلِّي بالآداب، واتَّصفتْ بالعفة والشَّرف والكمال، حتى عُرِفتْ بلقب «الطاهرة»[1] بين نساء مكةَ في زمانها.

* خديجةُ .... السَّيدةُ الطّاهرةُ.. إنَّ هذا لشرفٌ عظيم أَنْ تحظى خديجة بهذا اللقب المِعْطَار المبارك!. وذلك في عصرٍ تموجُ فيه أدرانُ الجاهلية موجًا، وتضع من قيمة المرأة.

* في أمِّ القرى كانت ولادة الطَّاهرة خديجة سنة (٦٨) قبل الهجرة النَّبوية الشَّريفة، وكان ذلك قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة تقريبًا[2].

وأمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم قرشية من بني عامر بن لؤي، أمّا أبوها فهو خُويلد بنُ أسد بن عبد العزى؛ من أشراف قريش، وقد مات يوم الفجار.

* كانت خديجةُ زوجًا لأبي هالة بن زرارة التَّميمي[3] فمات عنها، ثم خلف عليها عتيق بن عابد المخزومي[4]، ثم تزوَّجَها النَّبِيُّ الكريم ﷺ.

* وعندما ارتبطتْ خديجةُ بالنَّبي الكريم ﷺ، سَطَعَ نجمُها وبانَ فضلُها، وسادت نساء مكةَ كلّهن؛ بل نساء الدُّنيا جميعًا، و«حسبك مِنْ نساءِ العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون»[5].

* * *

الطَّاهِرةُ والمكانَةُ العُلْيَا:

* كانتِ الطاهرةُ خديجة مثلًا رائعًا بين نساء مكةَ في المكانة والشَّرف والمال، ولها تجارةٌ واسعةٌ، وتستأجرُ مِنَ الرِّجال في مالها ممن تثق بهم ليتجروا

لها، وتتَّفق معهم على نصيب مِنَ الأجر تدفعه لهم، في تلك الأثناء كانت الطَّاهرةُ خديجة تعرفُ الفتى الأمينَ محمَّد بنَ عبد الله الذي يلتقي نسبه مع نسبها في قصي بن كلاب(٦). وعُرِفَ عن خديجةَ أنَّها صاحبة نظرة ثاقبة، وفراسة صحيحة، فكانت ترى محمّدًا وتسمعُ أخباره العطرة من الغادي والرائح.

* وكانت أخلاقُ النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام، وصفاته الجميلة تُعطِّرُ الدّنيا وتدخل القلوب على اختلاف أصحابها، ولهذا رغبتْ في أَنْ يتجرَ لها بمالها، فأرسلتْ إليه وقالت:

إنَّه دعاني إلى البعثةِ إليكَ ما بلغني مِنْ صدق حديثك وعظَمِ أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعْفَ ما أعطي رجلًا مِنْ قومك.

فقبل النَّبيُّ ﷺ منها ذلك، ولما سمع أبو طالب بأعطية الطَّاهرة خديجةَ، قال لرسول الله ﷺ: هذا رزقٌ ساقَهُ الله إليك.

* * *

الطَّاهرةُ الخيِّرةُ:

* ذكر أبو جعفر الطَّبري وابنُ كثير وابنُ سيِّد النّاس عن معمر، عن الإمام ابن شهاب الزُّهري؛ أنَّه قال: لما استوى رسول الله ﷺ، وبلغ أشدّه، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حُبَاشة – سوق بتهامة – واستأجرتْ معه رجلًا آخرَ مِنْ قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عنها: «ما رأيتُ مِنْ صاحبة أجير خيرًا مِنْ خديجةَ، ما كُنا نرجعُ أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفةً مِنْ طعامٍ تخبئُه لنا».

* لمست الطَّاهرةُ خديجة صِدْقَ محمَّد ﷺ وأمانته وكرم أخلاقه، فكانت تجزلُ له العطاء، ولما بلغ سيّدنا رسول الله خمسًا وعشرينَ سنة، وسافر بتجارة لها إلى الشَّام مع غلامها ميسرة، وفي الشَّام باع ﷺ سلعته واشترى ما أراد، وربح ضعْفَ ما كانت تربح خديجة، وقفل راجعًا نحو البلد الأمين مكةَ، فأدّى لها ما عليه في أمانةٍ تامة، ونُبْلٍ عظيم، وقد حفظ الله سبحانه رسولَه ﷺ وحاطه برعايته؛ حتى كانت هذه السَّفرةُ بما كان فيها من الخير والبركة، ذات أثر مبارك في حياة محمّد ﷺ.

* وفي مكةَ انطلق ميسرةُ يحدِّثُ بما رأى من سيّدنا محمد ﷺ من كرم الخلق وحُسْنِ الصحبة وعظَمِ الأمانة؛ بل حدَّثَ بما رآه من إرهاصات النُّبوة التي لمسها وعاينها، وما أكْثَرَ ما رأى في تلك الرّحلة الجميلة من خصائصَ كثيرة للنَّبي ﷺ، وأدلى ميسرة أيضًا بشهادته الصادقة المباركة إلى خديجة، فسُرَّتْ بأمانته وصدقه، وما نالها من بركةٍ وربح

بسببه ﷺ، وكان الله سبحانه وتعالى قد كَتَبَ لها الكرامة، وأراد بها الخير حيث ألقى في نفسها أمنية كريمة مباركة جعلتها سعيدة في الدَّارين.

* * *

الطَّاهِرةُ والزَّواجُ المُبَارَكُ:

كان السَّاداتُ والرؤساءُ في مكةَ يحرصون على الزَّواج من خديجةَ، فتأبى ذلك عليهم، وتردّهم جميعًا، ولكنَّها وجدت ما تنشدُه وماتبغيه في سيِّدنا محمد ﷺ، وهنا أفضتْ عمَّا يدور في نفسها إلى صديقتها «نُفَيسة بنت منية»(٧) فذهبتْ نُفَيسة إلى النَّبي الكريم ﷺ وكلمته أَنْ يتزوَّجَ الطَّاهرة خديجة، وقالت: يا محمد ما يمنعُكَ أَنْ تزوَّجَ؟.

فقال: «ما بيدي ما أتزوجُ به».

قالت: فإنْ كُفيتَ ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشَّرف والكفاءة ألا تُجيب؟.

قال: «فمَنْ هي»؟.

قالت: خديجةُ.

قال: «وكيف لي بذلك»؟.

قالت: عليَّ.

قال: «فأنا أفعلُ».

ورجعت نُفَيسة إلى الطَّاهرة خديجة تَحمل خبر نجاحها في مهمتها، وزفَّتْ إليها نبأَ موافقة محمّد ﷺ بالزّواج، فأرسلتِ الطَّاهرة خديجة إلى عمِّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر، وجاء رسولُ الله ﷺ إلى بيتِ خديجةَ في آل عبد المطلب، وفي مقدمتهم عمُّه حمزة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وعمّه أبو طالب، وكان في استقبالهم عمّ الطَّاهرة خديجة، وابن عمِّها ورقة بن نَوفل، وقام أبو طالب خطيبًا، وألقى خطبةً رائعةً نقتطف منها فِقْراتٍ كاشفةٍ، فكان مما قال:

الحمدُ لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزَرْع إسماعيل، .. وجعلنا حضنَةَ بيته وسُوّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوبًا وحرمًا آمنًا، ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يُوزنُ به رجلٌ مِنْ قريش شرفًا ونبلًا وفَضْلًا إلا رجح به، .. ومحمد مَنْ عرفتم قرابته .. وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتُم من الصّداق – المهر – فعليَّ.

وافق عمُّها عمرو بن أسد وكان شيخًا كبيرًا(٨) فقال: هو الفحلُ لا يُقْدحُ أنفُه(٩).

* وتزوَّج النَّبي الكريم ﷺ الطَّاهرة خديجة، وأصدقها عشرينَ بكْرة، ونحر وأطعمَ النَّاس، وقد أشار البُوصيري -رَحِمَهُ اللَّهُ- إلى هذا عندما قال:

ورأَتْه خديجة والتُّقى والزَّهـ

ـــدُ فيـــه سجيـــةٌ والحياءُ

وأتاها أَنَّ الغمامةَ والسَّر

حَ[10] أظلَّتـــه منهما أفيـاءُ

وأحاديثُ أَنَّ وعدَ رسول اللـ

ـــــه بالبعث حان منه الوفاءُ

فَدَعَتْهُ إلى الزَّواج وما أَحْـ

ـسَنَ أَنْ يبلغَ المنى الأذكياءُ

* كانـت الطَّـاهرةُ خديجـة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- بنـت أربعين في سنِّ اكتمال الأمومة، أمّا محمد ﷺ ففي سنِّ اكتمالِ الشَّباب ابن خمس وعشرين سنة.

وفي هذا الزَّواج المبارك كانت الطَّاهرة خديجةُ هي الزَّوجةُ الوفية في حبِّها، وهي الأمُّ الرؤوم في حنانها وعطفها وبرّها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

* * *

الطَّاهرةُ الوَدُودُ الولُودُ:

* كان هذا الزَّواج زواجًا ميمونًا سعيدًا، فمحمّد ﷺ نِعْمَ الزّوج، والطَّاهرة خديجة نِعْم الزّوجة الوفيّة، وقد عاشا معًا زوجين هانئين، وسَرَتْ بينهما الألفةُ، وتوطّدت عواملُ الاستقرار، وضربتْ خديجة أروعَ الأمثلة في الصَّلاح وفي الإيثار والكرم، وذلك عندما شعرت أنَّ زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام يحبُّ زيدَ بن حارثة[11] مولاها فوهبته له، فازدادت بذلك منزلتها في نفسه ﷺ.

* ولما كفل رسول الله ﷺ ابنَ عمه عليّ بن أبي طالب، وَجَدَ عليٌّ عند الطّاهرة خديجة أمًّا عطوفًا، وقلبًا حانيًا، ومعاملةً طيِّبة. وقد أكمل اللهُ هذه السَّعادة الزَّوجيةَ بالأبناء؛ فولدت له القاسم - وبه كان يُكنى أبا القاسم - ثم ولدت له زينب ورقية وفاطمة وأمّ كلثوم، وكان ذلك قبل النّبوة، وولدت له في الإسلام عبد الله فسُمي الطيّب والطّاهر، وكان بين كل ولدين سنة، وكانت تسترضعُ لهم وتهيئ ذلك قبل أَنْ تلد.

وقد ذكر ابن عباس -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- أولادَ رسول الله ﷺ مِنْ الطاهرة الولود خديجة فقال: ولدت خديجةُ لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة، القاسم وعبد الله، وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية[12]. أما إبراهيم فهو من مارية القبطية -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- ومات بنوه كلهم في صغرهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، فرقية وأمّ كلثوم تزوجتا عثمان بن عفان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- وزينب زوجة أبي العاص بن الرَّبيع بن عبد شمس، وفاطمة زوجة عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين-[13].

وقد أدركتهُن الوفاة في حياة النَّبي ﷺ إلا ابنته فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر.

* * *

الطَّاهرةُ ومَطْلَعِ الفَجْر:

* امتـاز النَّبـي الكـريم ﷺ في قومـه بـشمائلَ كريمةٍ فَـاقَهُم فيهـا جميعًـا، حتى أطلقـوا عليـه لقـب «الأمـين» لِمَـا جُمِـعَ فيـه مـن الأحـوال الـصَّالحة والصِّفاتِ المُرْضية، وجَمَعَتِ الطَّاهرةُ خديجة شمائله هـذه بقولهـا لـه: إنَّك لتصلُ الرّحم، وتحمـل الكلّ، وتكـسبُ ا لمعـدوم، وتقـري الـضَّيف، وتعـين عـلى نوائب الحق(١٤).

* نعم فقد عَرَفَ أهلُ مكة صفات محمّد ﷺ، وكانوا يرضون بقضائه فيهم إذا ما ثارت خلافات فيما بينهم، ولكنَّه ﷺ ينكر ما هم عليه مِنَ الضَّلال وعبادة الأوثان. ولما قاربت سِنّه الأربعين حُبّبَ إليه الخلاءُ في غار حراء – قرب مكة –، فكان يخلو به، ويقـضي وقتـه في العبـادة والتفكـر في الكـون وفي مبدعه، ويمكث فيه الليالي ذوات العدد.

* وكانـت الطَّـاهرةُ خديجـةُ إذا نهـضتْ في الصَّباح الباكرِ، تتفقَّد زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام فلا تجده، فتعرفُ أنَّه في خلوته، فلا تسأله عن شيء، وذلك لكونها عاقلة لبيبة، وترى من أحواله ما لا يراه غيرها.

* كانت الرؤيا الصَّادقة أول ما أشرق عليه من نور النّبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصُّبح، وكانـت تـساوره المخـاوف، فكـان يفـضي إلى زوجـه الطَّاهرة العاقلة ا للبيبة بمخاوفه ويقول لها: «إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء، وقد خشيتُ – والله – أنْ يكـونَ لهـذا أمـر..»، فتطمئنـه الطـاهرةُ خديجـة وتقول له: «معاذ الله! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنَّك لتؤدي الأمانة وتصلُ الرحم وتصدُقُ الحديث».

* كانت كلماتُ السَّيدة الطاهرةُ خديجة نوعًا من فِراسَةِ الإلهام، وبردًا وسلامًا على رسول الله ﷺ، خفّفتْ بها عنه ما شعر به من آثار المفاجأة الرَّهيبة، ثـمَّ إنَّ كلـمات خديجـة النّورانيـة نابغـةٌ مِـنْ معرفتها أخـلاقَ رسـولِ الله ﷺ التـي خبرتهـا فيـه بتجاربها وفراستها في جميع المجالات، ناهيك بما لمحمد ﷺ في مجتمعه مِنَ الإكبار وحُسْن الصِّيت وجمال الحديث.

* * *

الطَّاهِرَةُ العَاقِلةُ:

* لما نـزلَ جبريـلُ بقـولِ الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]، كان للطَّـاهرةِ العاقلـة دورٌ مبـاركٌ، ولنـترك عائـشةَ أمَّ

المؤمنين تروي لنا موقفَ الطَّاهرة خديجة، وبشارتها رسول الله ﷺ بالنبوة، وتثبيتها له فتقول:

«... فرجعَ بها – أي سورة العلق – رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجةَ بنتِ خويلد – رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فَزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبدًا، إنَّك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْري ا لضَّيفِ، وتُعِينُ على نوائب الحق. فانطلقت به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ ابنَ نوفل بنَ أسد بن عبد العُزَّى – ابنَ عم خديجة – وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتبُ مِنَ ا لإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أَنْ يكتبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ.

فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟.

فأخبره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رأى.

فقال له ورقة: هذا النَّاموس الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًا إذ يُخْرِجُك قومُك.

فقال رسولُ الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجيَّ هم؟.

قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، إنْ يدركني يومُك أَنْصرُك نصرًا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أَنْ تُوفِّيَ، وفتر الوحيُّ»(١٥).

* وقد رُوي أنَّ ورقة قال يخاطبُ الطَّاهرةَ خديجة في ذلك:

فإنْ يَكُ حقًا يا خديجةُ فاعلمي
حديثك إيانا فأحمد مرسلُ
وجبريل يأتيه وميكال معهما
مِنَ الله روح يشرحُ الصَّدر منزل(١٦)

* * *

الطَّاهِرَة الصِّدِّيقَةُ الأُولى:

* في حَلبةِ التَّسابق الإيماني، وفي ميدان السَّبْقِ إلى الإسلام، كانتِ الطَّاهرةُ خديجةُ - رضي الله عنها وأرضاها – الفائزة بالدَّرجة العُليا برتبة صِدِّيقة المؤمنات الأولى، فأكرمْ بهذا اللقب وأعظمْ به؟!.

* فالطَّاهرةُ خديجةُ – رضوان الله عليها – أولُ مَنْ آمنَ وصدَّق رسولَ الله ﷺ، وأولُ مَنْ سمع ما تنزَّل عليه من الذِّكرِ الحكيم منْ فمِهِ الشَّريف عليه الصَّلاة والسَّلام.

* وإسلامُ الطَّاهرةِ خديجة –رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- كان إسلام الفطرة النَّقية الصَّافية الزَّاكية المتطلعة بسواطع الإلهام إلى المستقبل النُّوراني الصَّادقِ، فقد

رزقها اللهُ عقلًا كبيرًا وفطنةً مباركة نادرةَ الوجودِ في تأريخ النِّساء.

* وللطَّاهرة الصِّديقة الأولى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سوابق مباركة في مطالع إيمانها، لم تكن لأحد مطلقًا، وفضائل انفردتْ فيها فلا يلحقها فيها لاحق، وكيف تُلْحَقُ وقد حظيتْ بمكانة عظيمةٍ في نفس رسول الله ﷺ، حيثُ آمنت به حين كفرَ النَّاس، وصدَّقتْ به حين كذَّبَهُ النَّاس، وجادت بمالها وواسته بنفسها، ورزقه اللهُ منها الولد، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهِرةُ وبيتُهَا المُبَارَكُ:

* مِنْ دار الطَّاهرة خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سطعَ نورُ الإسلام، ومنها أضاء الدُّنيا كلّها، فلا عجبَ أَنْ تكونَ هذه الدَّار دانيةَ القطوفِ، طيِّبة الثرى، مباركة الموضع، وممّا يشيرُ إلى بركةِ الطَّاهرة خديجة، وبركة بيتها، أنَّ الطَّاهرةَ أمَّ المؤمنين خديجة وبناتها مِنْ سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنَّ أول النَّاس إسلامًا؛ بل إنَّ كلَّ مَنْ أظلَّهم سقفُ بيتها كانوا مِنَ السَّابقين الأولين إلى الإسلام، وكلُّنا يعرفُ أسبقية سيّدنا علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وهما مِمَّنْ عاشا ضمن أسرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت الطَّاهرة المبارك.

* وسَبْقُ هؤلاء الغرّ الميامين إلى الإيمان بالله تعالى، والتَّصديق برسالة النَّبي الكريم ﷺ لدليلٌ على فطرتهم النَّقية التي اكتسبوها مِنْ سيدنا رسول الله ﷺ، ومنَ الطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجةَ رضوان الله عليها.

* ولِدارِ الطَّاهرة أمّ المؤمنين خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مكانةٌ كبيرة، وأفضليةٌ مباركة، فقد ذكر المحبُّ الطَّبريُّ أنَّ دارَ خديجةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أفضلُ الأماكنِ بمكةَ بعد المسجد الحرام ولا شك في ذلك[١٧] والله أعلم. ولعلّ هذا يرجعُ لطولِ سكنى النَّبي الكريم ﷺ، ونزول الوحي عليه فيها.

* وذكر الإمام الفاسي أنّ الدورَ المباركةَ بمكةَ دارُ خديجةَ بنت خويلد أمِّ المؤمنين -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، ففي هذه الدار ولدت فاطمة سيّدة نساء العالمين هي وأخواتها، وذكر أنَّ النَّبيَّ الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنى بخديجةَ فيها، وأنَّها توفيت فيها، ولم يزلِ النَّبيُّ الكريمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساكنًا فيها حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فأخذها عقيلُ بن أبي طالب، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة فجعلها مسجدًا يُصلى فيه[١٨].

* وفي دار الطَّاهرةِ خديجة يذكر الإمام الفاسي

أيضًا أنَّ الدُّعاء يُستجاب فيها ليلةَ الجمعة، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهرةُ البرَّةُ الوَصُوْلَةُ:

* قضتِ الطَّاهرةُ خديجةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- في كَنَفِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرحلةً تُقاربُ ربع قرن مِنَ الزَّمنِ، فكانت في حياتها المباركة معه أوفى وأبرَّ زوجة لزوجها، كانت تشاركه مباهجه ومسرّاته، وتتطلّع إلى رضاه وسعادته، وتبرُّ مَن يحبُّهم لتزدادَ مكانة في نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ظهر مِنْ برّها وكرمها ما رفعها إلى مكانةٍ عاليةٍ أثيرة، فقد أصابت النَّاس سنة جَدب بعد زواجها من رسول الله ﷺ، وفي هذه السَّنَةِ جاءتْ حليمةُ السَّعدية – مرضعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- زائرة، فعادت من عنده؛ ومعها من مال الطَّاهرة خديجة بعيرٌ يحمل الماء وأربعون رأسًا من الغنم.

* ووصل برُّ الطَّاهرةِ خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- إلى أبعد من ذلك، حيث كانت ثُوَيبةُ أول مرضعة للنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدخل على النَّبي الكريم بعد أَنْ تزوَّج الطَّاهرة خديجة، فكانت تكرمُها وتصلُها وفاءً وكرمًا لزوجها سيّدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كان النَّبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلُّها ويقدّرُها رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهِرَة العَابِدَةُ:

* قال القائل:

وإذا حَلَّتِ الهدايةُ قلبًا
نشطتْ في العبادةِ الأعضاءُ

* مكثتْ أمُّ المؤمنين خديجةُ – رضوان الله عليها – تُصلِّي مع النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاة التي كانت وهي: ركعتان في الغداة، وركعتان في العشي، وذلك قبل أَنْ تُفْرَضَ الصَّلوات الخمس في ليلة الإسراء.

* ذكر الإمام ابن إسحاق -رَحِمَهُ اللَّهُ- قال: حَدَّثني بعض أهل العلم أنَّ الصَّلاة حين افترضتْ على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فَهَمَزَ له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرتْ منه عينٌ من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمّد عليهما السلام، ثم صلّى ركعتين، وسجد أربع سجدات، ثم رجع النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أقرَّ الله عينه وطابت نفسُه وجاءه ما يحبُّ مِنَ الله سبحانه وتعالى، فأخذَ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وسجد أربع سجدات هو وخديجة، ثمّ كان هو وخديجة يُصلِّيان سرًّا.

* كانـتِ الـصَّلاةُ – بتلـك الـصّورة – آنـذاك شيئًا غريبًا عن المجتمع المكيّ وغيره لم يألفوه بعد، وفي حـديث عفيـف الكنـدي – أخـي الأشـعث بـن قيس لأمِّه وابن عمّه – ما يشيرُ إلى ذلك قال:

* كـان العبّـاسُ بـن عبـد المطلـب لي صـديقًا، وكـان يختلـف إلى اليـمن يـشتري العطـرَ ويبيعـه أيـام الموسم، فبينا أنا عند العبّاسِ بمنى، أتاهُ رجل مجتمع – بلغ أشدّه – فتوضأَ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأةٌ فتوضأت ثمّ قامت تصلي، ثم خرج غلامٌ قد رَاهَقَ فتوضأ ثم قام إلى جنبهِ يصلي، فقلتُ: ويحك يا عبّاس ما هذا الدِّين؟.

قال: هذا دينُ محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أنَّ ا لله بعثـه رسـولًا، وهـذا ابـن أخـي عـلي بـن أبي طالـب قـد تابَعَـهُ عـلى دينـه، وهـذه امرأتُـهُ خديجـة قـد تابعته على دينه.

* * *

الهوامش:

(١) انظـر في هـذا أسـد الغابـة ترجمـة رقـم (٦٨٦٧)، والإصـابة (٤٧٣/٤)، والاستيعاب (٢٧١/٤).

(٢) هذه السنة توافق عام (٥٥٦) من الميلاد.

(٣) الاشتقاق (ص ١٤٢ و ٢٠٨).

(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧).

(٥) الحديث أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، انظر جامع الأصول (١٢٥/٩).

(٦) قال الحافظ ابن حجر عن الطاهرة خديجة: وهي من أقرب نسائه ﷺ إليه في النسب.

(٧) نفيسة – بالتصغير – ومنية نسبة إلى أمها، وفي بعض المصادر: بنت أمية وهو أبوها، وهي أخت الصحابي الجليل المشهور يعلى بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٨) انظر كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٩٢).

(٩) هذا مثل يضرب للرجل الكفء الكريم،والفحل الذكر من الإبل، وكان العرب إذا وجدوا الفحل غير كريم ضربوا أنفه ومنعوه عن الناقة، وإن كان كريمًا تركوه، فذهب مثلاً في العرب، وقصد عمّ خديجة إلى أن محمدًا منهم وهو كفء كريم لا يُردّ.

(١٠) «السرح»: الشجر الكبير.

(١١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سيدنا زيد بن حارثة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

(١٢) انظر في هذا دلائل النبوة للبيهقي (٧٠/٢).

(١٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢٦/١)، وتأريخ الإسلام للذهبي (٦٦/١)، والفصول لابن كثير (ص٢٤٢).

(١٤) الحديث في صحيح البخاري (٥/١).

(١٥) الحديث صحيح في البخاري (٥/١ و٦).

«الكل»: هو من لا يستقلّ بأمره. «الجَذَع»: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابًا ليكون أمكن لنصره.

(١٦) انظر البداية والنهاية (١١/٣)، وكتاب منح المدح (ص٣٢٨).

(١٧) عن كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٤٣٨/١).

(١٨) المرجع السابق (٤٣٦/١).

رسائل العلامة أنور شاه الكشميري باللغة العربية: دراسة وصفية

بقلم: رئيس التحرير

مخلص البحث

يتناول هذا البحث رسائل العلامة الكشميري رحمه الله العربية بالدراسة والتعريف بإيجاز، لتتجلى أهميتها ومكانة صاحبها، ولك أن تدرك أهمية هذه الرسائل وجامعيتها وشمولها بآراء أهل العلم المعاصرين له وغيرهم. فيصفه العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري في «تأنيب الخطيب» بـ«العلامة الحبر البحر محمد أنورشاه الكشميري. وذكره متكلم عصره شيخ الإسلام مصطفى صبري التركي نزيل القاهرة في كتابه «موقف العلم والعقل والدين» ما لفظه: «رأيت في مرقاة الطارم على حدوث العالم لعالم الهند الكبير محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله، فذكر المسألة ثم قال: فسرني أن اتفقنا في الرأي».اهـ

ويقول العلامة الكوثري في كتابه «تأنيب الخطيب فيما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب» ص ٨٤: «وهذا البحث أي رفع اليدين طويل الذيل، أُلفت فيه كتب خاصة من الجانبين، ومن أحسن ما ألف في هذا الباب (نيل الفرقدين) و(بسط اليدين)، كلاهما لمولانا العلامة الحبر البحر محمد أنور شاه الكشميري، وهو جمع في كتابه اللبابَ، فشفى وكفى».

وبالنسبة لرسالة «إكفار الملحدين في شيء من ضروريات الدين» أشار المفتي محمد شفيع رحمه الله على بعض علماء العرب حين زاره في بيته، ووجه إليه بعض الأسئلة التي كان لايجد لها جوابًا شافيًا في المصادر التي وصلت إليها يده، فكشف المفتي محمد شفيع رحمه الله هذه الشبهات، وعند سؤاله عن مصدر يرجع إليه في كشف هذه الشبهات أشار عليه بأن يرجع إلى كتاب «إكفار الملحدين في ضروريات الدين».

وشمل هذا البحث رسائل له، هي:

١. إكفار الملحدين في ضروريات الدين
٢. التصريح بما تواتر في نزول المسيح
٣. عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام
٤. تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام

٥. نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين
٦. فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب
٧. ضرب الخاتم على حدوث العالم
٨. بسط اليدين لنيل الفرقدين
٩. كشف الستر عن مسألة الوتر
١٠. مرقاة الطارَم لحدوث العالم
١١. خزائن الأسرار
١٢. إيناس بإتيان إلياس عليه السلام
١٣. صدع النقاب عن جساسة الفنجاب
١٤. الإتحاف لمذهب الأحناف

وتوجد رسائل أخرى عددها نحو ثمانية لم أطلع على تفاصيلها ولم أجد من قام بتعريفها.

مقدمة

الهند من أخصب بلاد الله تعالى في أرضه، فقد أنجبت- ولاتزال تنجب بجانب إخراج الزروع الطيبة والثمار والفواكه الحلوة، والأزهار الباسمة والكلأ النضير في مختلف أرجائها- عددًا لابأس به من فحول وعباقرة العلماء والمحدثين والشعراء والكتاب في مختلف مجالات العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الأدبية واللغوية. ومن صفوة الصفوة هؤلاء العلامة حسن بن محمد بن حسن الصنعاني اللاهوري - من أعيان القرن السابع الهجري- الذي خرج من يراعه كتاب «العباب الزاخر» الذي يشكل مرجعية هامة في اللغة العربية، وهذا الشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانفوري (م٩٧٥هـ) الذي اكتسب كتابه «كنز العمال» صيتًا غطى الآفاق في علم الحديث، وكذلك الشيخ العلامة محمد طاهر الفتني (م٩٨٦هـ) الذي يعد كتابه «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» شرحًا وافيًا على الصحاح الستة الحديثية المعروفة، وذلك العلامة محب الله بن عبد الشكور الحنفي البيهاري المتوفى (١١١٩هـ) الذي جاء بكتاب منقطع النظير في موضوعه وهو «مسلم الثبوت» في أصول الفقه، وفي العهد الأخير كتاب مصباح اللغة لعبد الحفيظ البلياوي القاسمي، وقواميس ثنائية اللغة للعالم الأديب الشهير الشيخ وحيد الزمان الكيرانوي (١٩٣٠-١٩٩١م)، و القاموس الثلاثي اللغة: القاموس الفريد لنجله الأديب بدر الزمان القاسمي الكيرانوي، وكل هؤلاء و غيرهم ممن لم نسمهم لا لقلة وزن أعمالهم وتفاهة جهودهم، ولكن اختصارًا وإيجازًا، كل أولئك أثروا المكتبة الإسلامية والعربية بكتاباتهم الرصينة القيمة، والذين يعتز بهم العلوم الإسلامية والأدبية واللغوية ما بقي الليل والنهار في شبه القارة الهندية.

ترجمة موجزة للعلامة الكشميري:

محمد أنور شاه بن معظم شاه الحسيني

الكَشْمِيرِيّ (١٢٩٢-١٣٥٢هـ/١٨٧٥-١٩٣٣م)، أحد كبار الفقهاء الحنفية وعلماء الحديث الأجلاء، وُلِـدَ في (وَدْوَان)- مـن أعـمال (كَـشْمِير)-، وقـرأ المختصرات على والده، ثم سافر إلى (بَكْلي)، وقرأ على أساتذتها شيئًا من الفقه والأصول والمنطق، ثم الْتَحَق بدار العُلوم (دِيوبَنْد) سنة (١٣١٠هـ)، وقرأ العُلوم على: الشَّيخ إسحاق الأَمْرَتْسَرِيّ، و الشَّيخ خليـل أحمـد الأَنْبِيتَهْـوِيّ، والعلَّامـة محمـود حـسن الدِّيوبَنْـدِي، ثـم وَلِيَ التَّـدريس بالمدرسـة الأمينيـة بـ(دِهْلِي)، فدرَّس وأفاد بها زمانًا، ثم سافر إلى الحجاز سـنة (١٣٢٣هـ)، فحَـجَّ وزار، وأسـند الحـديث عـن الشَّيخ حسين بن محمد الجسر الطرابلسي - صاحب الحميديــة-، ثــم رجــع إلى أرض الهنــد، وأقــام بـ(دِيوبَنْد) يُدرس بها ابتغاءً لوجه الله سبحانه، ولما سافر شيخه العلَّامة محمود حسن إلى الحجاز سنة (١٣٣٣هـ) اسـتخلفه في تـدريس الحـديث، وولَّاه رئاسة التَّدريس في (دِيوبَنْد)، فاشتغل بتدريس سنن الترمـذي وصـحيح البخـاري، وانتهـت إليـه رئاسـة تـدريس الحـديث في الهنـد، وبقـي مـشتغلًا بـه مـدة ثـلاث عـشرة سـنة في تحقيـق وإتقـان وتوسُّـع في نقـل المـذاهب ودلائلها واستحضارٍ للنُّقول واطلاعٍ على دواويـن الـسنة وشروح الحـديث وكتـب المتقـدمين، وقد نفع الله بدرسه خلقًا كثيرًا، وتَخَرَّج عليه عددٌ كبير من الفضلاء اشتغلوا بتدريس الحديث ونشر العلـم، وظـل الـشَّيخ عاكفًـا عـلى التَّـدريس والإفـادة منقطعًا إلى مطالعة الكتب لا يعرف اللذة في غيرها، ثـم اعتـزل رئاسـة التَّـدريس وشِياخة الحـديث فيهـا، وغــادر (دِيوبَنْــد) بطلــبٍ مــن بعــض تلاميــذه وأصحابه، فتوجه إلى الجامعة الإسلامية في (دَابِيل) بولايــة (غُجْــرَات)، فعكــف فيهــا عــلى الــدرس والإفادة، ثـم عـاد إلى دِيوبَنْد ووافـاه الأجـل، وكـان الـشَّيخ نـادرةَ عـصره في قـوة الحفـظ وسـعة الاطـلاع عـلى كتُـب المتقـدمين والتَّـضَلُّع مـن الفقـه والأصـول والرسوخ في العُلوم العربية الدينية والتفسير وعلوم الحكمة، يستظهر ما قرأه في ريعان شبابه وما طالعه في مكتبـة يـسرد منـه العبـارات وينقـل منـه فـلا يُخِـلُّ بمعنــى، وكــان دقيــق النظــر في طبقــات الفقهــاء والمُحَدِّثين ومراتب كتبهم، منصفًا في الحُكم عليهم، يعـترف لـشيخ الإسـلام ابـن تيميـة بالفـضل والنبـوغ، ويصفه بالبحر الزَّخَّار الذي لا ساحل له، مع انتقاده لـه في تفرُّداتـه وحِدَّتـه، ويعـترف للحـافظ ابـن حجـر بغـزارة العلـم وعُلـوِّ الكعـب في صـناعة الحـديث، وكان كثير الإعجاب بكتابه فتح الباري دائم الثناء عليـه، وكـان شـديد العـدَاء والـبغض للقاديانيـة كثـير الرد عليهم منصرفًا إلى تبيين ضلالهم وكفرهم، ومن آثاره: «تعليقات على فتح القدير لابن الهمام» - إلى

كتاب الحج-، و«تعليقات على الأشباه والنظائر»، و«تعليقات على صحيح مسلم»، و«عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام»، و«إكفار الملحدين في ضروريات الدين»، و«نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين»، و«مشكلات القرآن»، وقد جمع بعض تلاميذه بعض إفاداته في درس سنن الترمذي، وسماه «العرف الشذي»، كما جمع بعض كبار أصحابه بعض تحقيقاته وإفاداته في درس الجامع الصحيح للبخاري، وسماه «فيض الباري»، تولى جمعها وتحريرها الشَّيخ بدر عالم المَيْرُوتِيّ، وله شِعر عربي رائع منه:

قفا يا صاحبي عن السفار

بمرأى من عرار أو بهار

يسير بنشرها نفحات أنس

وريا عند محى من قطار[٢]

- أهمية الرسائل العلمية:

الرسائل العلمية تحتل أهمية كبرى في الوسط العلمي، فإنها بحكم تناولها موضوعًا معينًا من الموضوعات- يجد كاتبها أمامه المجال واسعًا لاستيعاب مختلف شعبها ونواحيها وجوانبها، مما لايحتمله المؤلفات التي تدرس مختلف القضايا والمسائل العلمية، ومن هنا نجد أهل العلم قديمًا وحديثًا يركزون على إعداد رسائل في شتى الموضوعات الشائكة والعويصة، فمنها: رسائل الإمام الغزالي، ورسائل ابن عربي، ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، ورسائل السيوطي، ورسائل الإمام ابن القيم، ورسائل ابن عابدين، ورسائل ابن نجيم.

وعمل العلامة أنور شاه الكشميري رحمه الله رسائل عدة في مختلف الموضوعات الشائكة، في اللغة الفارسية والعربية، وندرس في هذه العجالة رسائله العربية التي شهدت النور قديمًا أو حديثًا، وهنا رسائل عدة لازالت مخطوطة وبعضها خافية عن الأنظار.

- رسائله العربية:

١. إكفار الملحدين في ضروريات الدين

هذه الرسالة عبارة عن محاكمة علمية لمسألة التكفير، وسرد غرر النصوص من كتب القدماء والمتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من فطاحل أهل التحقيق من المظان البعيدة وغير المظان، والتعليق عليها، وتحقيق مسائل الإلحاد والكشف عن وجوهها كتابًا وسنةً وحديثًا وفقهًا وأصولًا وكلامًا، كما تطرق الشيخ إلى مسألة إنكار ضروريات الدين والتأويل فيها. وقام المجلس العلمي بدابيل بطبعها أول مرة في ١٣٠ صفحة، بمقاس ٢٠×٢٦×٨، ثم صدرت لها عدة طبعات

مــن إدارة القــرآن والعلــوم الإســلامية/كراتــشي: الطبعــة الأولى عــام١٩٩٦م/١٤١٦هـ، والطبعــة الثانية عام ٢٠٠٤م/١٤٢٤هـ.

ورتب المؤلف الرسالة على مقدمة، وعناوين بارزة و خاتمة. ويليها تقاريظ كبار العلماء في عصره أمثال: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري (١٢٦٩-١٣٤٦هـ/١٨٥٢-١٩٢٧م)، والشيخ حكيم الأمة محمــد أشرف عــلي التهــانوي (١٢٨٠-١٣٢٦هـ/ ١٨٦٣-١٩٤٣م)، والــشيخ المفتــي كفايــت الله (١٢٩٢-١٣٧٢هـ /١٨٧٥-١٩٥٣م)، والــشيخ عزيــز الــرحمن الديوبنــدي (١٢٧٥-١٣٤٧هـ /١٨٥٨-١٩٢٨م)، والشيخ شبير أحمد العثماني (١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)، والــشيخ أبــو المحاســن محمــد ســجاد (١٢٩٩-١٣٥٩هـ/ ١٨٨١-١٩٤١م)، والشيخ مرتضى حسن (نحو ١٢٨٥- ١٣٧٠هـ/نحو١٨٦٨-١٩٥١م)، والشيخ حبيــب الــرحمن الديوبنــدي (...- ١٣٤٨هـ/...- ١٩٢٩م)، والــشيخ محمــد رحــيم الله البجنــوري (ت:١٣٤٧هـ/١٩٢٩م).

يقول الشيخ في المقدمة:

«فهــذه رســالة في واقعــة فتــوى قــصدت بهــا النصح والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، سميتها: «إكفار المتأولين والملحدين في شيء من ضروريات الدين» أخذًا للاسم والحكم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يضعون الكلام في غير موضعه. والمراد بضروريات الدين على ما اشتهر في الكتب: ما علــم كونــه مــن ديــن محمــد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالــضرورة، بــأن تــواتر عنــه واســتفاض و علمتــه العامة، كالوحدانية والنبوة وختمها بخاتم الأنبياء، وانقطاعها بعده، وهذا مما شهد الله به في كتابه، وشهدت به الكتب السابقة، وشهد به نبينا ﷺ، وشهدت به الأموات أيضًا، كزيد بن خارجة الذي تكلم بعد الموت، فقال: محمد رسول الله النبي الأمي، خاتم النبيين، ولا نبي بعده، كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق صدق. ذكره في المواهب...)[٣].

وقال في نهاية الرسالة:

«لكن أثناء التأليف انجر البحث عند الكلام في مسألة التأويل إلى نقول أخر، والشيء بالشيء يُذكر، فانضم إليها أطراف وذيول، لعلها تفيد الناظرين، فليس من الدين أن يكفر مسلم، ولا أن يغمض عن كافر، والناس في هذه المسألة في هذا

العصر على طرفي نقيض، ولقد صدق من قال: إن الجاهل إما مفرط وإما مفرط. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهذا آخر الرسالة وختام المقالة، وما أردت بها إلا دعوة صالحة من طلبة العلم بحسن العاقبة، وخير الخاتمة، لمؤلفها الأحقر الأفقر محمد أنور شاه.....»(٤).

وأهم موضوعات الرسالة ما يلي:

- خطبة الكتاب
- داعية تأليف الرسالة....
- تحقيق أن إنكار شيء من ضروريات الدين كفر
- بيان أقسام التواتر الأربعة وأمثالها
- بيان اجتماع عدة أقسام في شيء تارة
- بيان كثرة المتواتر في الأحكام....
- تصريح مالك بنزول المسيح عليه السلام في «العتبية»
- تفصيل متواتر عبر الكيفية وحكمه
- بيان شيء من دعاوي القادياني وادعائه النبوة والرسالة...
- بيان بعض المكابرات في التأويلات
- تفسير الزندقة والإلحاد والباطنية وأن حكمها الكفر
- تحقيق معاني المنافق والمرتد والمشرك والكتابي والدهري والزنديق....
- موضوع التكفير بغاية الإشباع
- نقول ملتقطة عن «الصارم المسلول» لابن تيمية في سب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره.
- سب القادياني سيدنا عيسى عليه السلام
- قصيدة عصماء في تقديس عيسى عليه السلام عن سبائب القادياني اللعين وكفرياته
- تحقيق حكم من سب الأنبياء
- تحقيق من قال:إن النبوة مكتسبة فهو زنديق.

ويبلغ عدد مصادر هذه الرسالة (١٢٠)(٥).

٢. التصريح بما تواتر في نزول المسيح

تتحدث الرسالة عن كثير من أشراط الساعة مع الشرح والإيضاح، وخاصة نزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان.. في ضوء أكثر من مئة حديث نبوي بلغ مبلغ التواتر، وأثر صيحح. ألفها للرد على الفرقة القاديانية الضالة، التي نبتت في أواخر القرن المنصرم في الهند بتوجيه من الإنكليز المستعمرين، وبدعمهم ورعايتهم، حتى مزقت جزءًا كبيرًا من جسم الإسلام. قام مكتب المطبوعات الإسلامية/ بحلب بطباعتها بتحقيق ومراجعة وتعليق من الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، في (٣٧٣) صفحة. وصدرت له خمس طبعات. الأولى بحلب

عـام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، و الثانيـة: بباكـستان، عـام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، و الثالثـة: ببـيروت عـام ١٤٠١هـ/١٩٨١م، والرابعـة: بالقـاهرة، عـام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، والخامـسة: ببـيروت عـام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. وتـشتمل الرسـالة عـلى مقدمـة بقلم تلميذ الكشمـيري: الشيخ المفتي محمد شفيع - رحمه الله - وهو الذي رتب هذه الرسالة بطلب من المؤلف كما أشار إليه في مقدمته الضافية على الرسالة. ومن أبرز موضوعات الرسالة: أحاديث في هذا الباب، أحاديث أخرى مما أخرجه المحدثون وسكتوا عليه، آثار الصحابة والتابعين. وقال المؤلف في نهاية الأحاديث والآثار: «فهذه مئة خبر وخبر من المرفوع والموقوف، والحمد لله أوله وآخره»(٦).

٣. عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام

قام بطبع هذه الرسالة أول مرة المجلس العلمي بتحقيق وتخريج مولانا محمد طاسين،ثم طبعه الحافظ محمد يعقوب قصوري بعدد محدود،ثم قامت شركة حاشر للطباعة بعد أن نفدت طبعاته.

وقامت مطبعة القاسمي بطبع الرسالة في (٢٣٨) صفحة بالطبعة الحجرية، تاريخ الطباعة غير موجود. ثم قام المجلس العلمي بطبعها عام ١٣٨٠/١٩٦١م في ٣٤٠ صفحة، وفي أولها مقدمة بقلم الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله في ٣٢ صفحة. ونشرت مجلة البينات ترجمتها إلى الأردية بقلم الشيخ محمد يوسف اللدهيانوي رحمه الله في خمس حلقات.

يقول العلامة الكشميري عن هذه الرسالة:

«فهذه سطور أو فصول سميتها «عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام»، كنت أمليتها على الطلبة على طريق العجالة، والآن في ثاني عشر شهر رمضان من سنة ثلاث وأربعين بعد المئة الرابعة عشرة كتبتها على سبيل الرسالة...».

وسمى الكشميري هذه الرسالة باسم آخر: «حياة المسيح بمتن القرآن والحديث الصحيح».

يقول الشيخ البنوري في مقدمته على الكتاب: «وأفادني رحمه الله بأن موضوع كتابي هذا إثبات حياته بأدلة القرآن الكريم، وإنما جاءت الأحاديث والآثار تبعًا لإيضاح الآيات، ولم يكن الغرض استيفاء الأحاديث الواردة في الكتاب، فلايظن أن الشيخ رحمه الله استوفى الآيات والروايات جميعًا كما يظن كثير من أهل العلم، وإنما استقصى الشيخ رحمه الله الروايات في رسالة «التصريح..» كما سبق، وإنما الغرض الوحيد شرح آيات من التنزيل العزيز وما يتعلق بحياته عليه السلام...»(٧).

وكان الشيخ العلامة شبير أحمد العثماني يقول:

هذا الكتاب أكثر كتب الشيخ الكشميري إيضاحًا وتفصيلًا»[٨].

سبب تأليف هذه الرسالة كما قال المؤلف في مقدمته عليها:

«ثم إنه لما أراد تخليط المبحث والتلبيس على عوام المسلمين فيما لايتعلق بالموضوع تعلق بإشاعة وفاة عيسى عليه السلام، وسود الأوراق، ووجهه به، وجعله شبكة للعوام، وكرره في كل جعجعة له، فصنف العلماء لإثبات حياته رسائل حسنة نحو درة الدراني على متن القادياني، وسيف جشتيائي، وشهادة القرآن وغيرها، وكانت تكفي؛ ولكني أردت تمرين طلبة الدرس بهذه الرسالة، وإطلاع المسلمين ممن لسانهم عربي من العراق والشام ومصر وغيرها، فالمأمول من كافة المسلمين أن يقوموا بنصرة الدين والذب عن حوزته، وبأداء فريضة الإسلام وحقه وحفظ المسلمين من كيد هؤلاء الزنادقة وكفرهم البواح، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[٩].

ورتب الرسالة على عدة فصول وفوائد أهمها:

- فصل في انعقاد المشيئة الأزلية بنزوله عليه السلام
- فصل في الحكمة من نزوله عليه السلام.
- فصل آخر في هذا المعنى.
- فصل من الإنجيل
- فصل آخر من الإنجيل
- فصل في تفسير لفظ التوفي وشرحه لغة وعرفا
- الفصل الثاني:في أن الكناية ليست من المجاز
- تذنيب من أنواع البديع...
- تذييل في كشف معنى هذا اللفظ
- فصول في تفسير الآيات المتعلقة بحياة المسيح عليه السلام من آل عمران والنساء والمائدة
- أمر السيد والعاقب وذكر المباهلة
- فصل في آية آل عمران
- فصل في نكات أخرى
- فصل في قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران:٥٥].
- فصل في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥].
- فصل: وقد قالوا: جاء في هذا الكتاب...
- فصل مما ينبغي أن يعرف أن الكتب المتقدمة بشرت بالمسيح كما بشرت بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- فصل في آيات النساء مما يتعلق بمسألتنا
- فصل في مضمون هذه الآيات...

- فصل في بعض مزايا هذه الآيات
- تتمة: القتل والصلب
- تذكرة
- تنبيه
- فصل فيما ألحد به ذلك الشقي
- تمرين
- فصل في تحقيق كلمة (إذ) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ....﴾ [آل عمران:٥٥].
- فصل في محصل هذه الآيات وملخصها ونسقها
- تحذير
- تحذير آخر
- فصل
- فائدة زائدة
- خاتمة الرسالة في آية ختم النبوة
- فائدة تنفع ولاتضر

ويقول في آخر الرسالة:

«فلم يبق للملحد المذكور إذن فرجة في حلقة الإسلام، فليتبوأ مقعده من النار، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]، وليكن هذا آخر الرسالة، وأنا أضعف العباد وأصغرهم الأفقر الأحقر محمد أنور عفا الله عنه خادم الطلبة بدارالعلوم الديوبندية[١٠].

وفي آخر الرسالة مديح للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللغة الفارسية في صفحتين[١١].

٤. تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام

عمل الشيخ هذه الرسالة بعد تأليف رسالة «عقيدة الإسلام...» بثماني سنوات، وقبل موته بعام واحد عام ١٣٥١هـ، وهو في الجامعة الإسلامية/ دابيل. وموضوع الرسالة هو حياة عيسى عليه السلام، في ١٥٠ صفحة، وهي في الواقع زيادات على رسالة «عقيدة الإسلام» ونموذج للفصاحة والبلاغة والتحقيقات النادرة، تجمع بين التحقيقات الفرعية و(٢٢١) حاشية يقول الشيخ الكشميري عن هذه الحواشي:

«هذه حواشٍ تفتر عن لؤلؤ رطب وعن شنب وتبسم عن بشر ونشر، كافيك من أمل وأرب، وتطلق لك عن بلج وثلج يقين، وشرح صدر ونور مبين، أخذت عن العربية أعربها وأغربها، ومن نكات البلاغة أعذبهاو أطربها، يقدر قدرها من عني بعلوم البلاغة والبراعة أوكان جلى في تناول قصبات السبق والبراعة، في أريحية تيجان، والمعية موفق معًا، علقتها على رسالتي عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام، وسميتها «تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام»، تضمنت تفسير آيات

في إفحام ذلك الملحد العنيد، والشيطان المريد، الكاديـاني الكـداني، المتنبـئ الكـافر عنـد الأقـاصي والـداني، وإخراجـه مـن العلـم والفهـم والـدين والإسـلام والهـدى، وإلحاقـه بالـشيطان الـرجيم، وإيقاعـه في هـوة الـردى، والله الموفـق والمعـين، وبـه نستعين، وذلك سنة ١٣٥١هـ، خدمت بها أهل الحق وأعوانـه، وآل العلـم وإخوانـه، ادخرتها عنـد الله في الآخرة والأولى..»[١٢].

قام المجلس العلمي/كراتشي بجمع الرسالتين في مجموعـــة نـــشرتها عـــام ١٣٨٠هـ/١٩٦١م. والأوراق الأخيرة من الرسالة أكلته الأرضة، وهي التي تضم الخاتمة[١٣].

٥. نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين

مـسألة رفـع اليـدين في الـصلاة مـن المـسائل العويصة التي كثُر فيها القيل والقال والأخذ والرد، وتحتل أهمية خاصة في بابها، وبطلب من المجلس العلمـي بـدابيل أعـد العلامـة الكـشميري هـذه الرسالة، ورغم أنه لايسع أحدا أن يفصل في قضية مختلف فيها بين الصحابة وبين الأئمة فصلا حاسما، إلا أنه يمكن القول بأن هذه الرسالة رسالة بكر في بابها من استيعاب الأحاديث والآثار، ونقد الأسانيد والرجال بمنهجية وسط، والتأمل في غرض الشارع وموارد النصوص، والمعاني والمطالب بنظرة عدل، و بعيـدًا عـن التحيـز للمـذهب. ودرس العلامـة الحقيقة والواقع ونقح الموضوع تنقيحا ولم يفته سرد الاختلافات في المسألة.

والرسالة في اللغة العربية، أعدها أيام نزوله في الجامعة الإسلامية/ دابيل، في غجرات، خلال شهر واحد، وقام بنشرها المجلس العلمي بدابيل، وهي طبعـة حجريـــة. وقـام بطبعهـا المجلـس العلمـي بـدابيل عـام ١٣٥٠هـ في ١٥٠ صـفحة بمقـاس ٢٠×٢٦×٨. ورتبـه الـشيخ عـلى مقدمـة، وسـتة فصول، وخاتمة.

ويتضمن كل فصل إحالات إلى مصادر كثيرة، ففي الصفحة الأولى من الفصل الأول وحده إحالة إلى ٥٠ كتابا، وموضوعات الرسالة كما يلي:

الفصل الأول: في معنى رفع اليدين.

الفـصل الثـاني: فـيما فهمـه بعـض الـسلف مـن معنى التكبير.

الفصل الثالث: في أحاديث الرفع.

الفـصل الرابـع: في أحاديـث تـرك رفـع اليـدين، ونبذ من الآثار.

الفصل الخامس: في أحاديث ترك رفع اليدين في غير الافتتاح والآثار.

يقول المؤلف في مقدمة الرسالة:

«فهذه نبذة في مسألة رفع اليدين قبل الركوع

وبعده وبين السجدتين وبعد الركعتين، وما يدور من النظر والمعنى فيها في البين، سميتها (نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين)، ما قصدت بها إخمال أحد الطرفين، ولايستطيعه ذو عينين، وإنما أردت بها أن بيد كل واحد من الفريقين وجهًا من الوجهين، وهما على الحق من الجانبين، وليس الاختلاف اختلاف النقيضين؛ بل اختلاف تنوع في العبادة من الجهتين، وكل سنة ثابتة عن رسول الثقلين، تواتر العمل بها من عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم على كلا النحوين، وإنما بقي الاختلاف في الأفضل من الأمرين، ولو لم يكن للمرء ضيق صدر لوسع الجنبين، وقد بين الصبح لذي عينين، وإذا تقاعس واحد وتفارط آخر حل البين في البين، ومن سلك طريق الجدل رجع بخفي حنين»(١٤).

وقال المؤلف في الخاتمة:

«لايخفى أن البحث في هذا الشأن يحوج إلى طول ممارسة، وكثرة مراجعة إلى الأصول والمتابعات، والشواهد والاعتبار والتطريق، وإذا كان بين السياقين اشتراك ومغايرة أيضًا، فيحوج إلى أنه حديث واحد أو حديثان، ومعرفته من أصعب المراحل، وإذا كان واحدا فهل يابي هنا ترجيح أو توفيق أو هو زائد وناقص، وذكر كل ما لم يذكره الآخر، ثم ينشعب كل بحث إلى مالا يكاد ينفصل، وفي كل ذلك للناظر حدس ووجدان، ثم اختلاف مناسبات الطبائع والقرائح فوق ذلك كله، ثم من المعلوم ألا ترادف في المفردات عند المحققين، وكذلك في المركبات، فضرب زيد عمرا، وضرب عمرا زيد، وزيد ضرب عمرا، كلها تراكيب متغايرة في المعاني... وكذا زيد قائم، وقائم زيد، وزيد القائم، والقائم زيد، فلا يمكن الرواية بالمعنى....»(١٥).

٦. فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب:

هذه رسالة ألفها في قضية قراءة الفاتحة خلف الإمام، ودرس فيها القراءة خلف الإمام رواية ودراية دراسة وافية شافية، وتطرق إلى شرح حديث محمد بن إسحاق وجميع طرقه، بالإضافة إلى شرح بعض الأحاديث، وتفسير بعض الآيات الخاصة بالموضوع، علاوة على بعض مباحث علم النحو والمعاني استعان بها في شرح الحديث شرحًا لايدع مجالا للشاك في الموضوع. وطبعت في مطبعة يونيورسل في ١٩١١م، وفي مطبعة المجلس العلمي بدابيل في ١٠٦ صفحة، كما طبعتها دار البشائر الإسلامية باعتناء وتخريج محمد رحمة الله حافظ الندوي عام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م في نحو٢٥٤ ضمن (مجموع فيه ثلاث رسائل للكشميري).

وتتـضمن هـذه الرسـالة مقدمـة- في نحـو صـفحتين ونـصف صـفحة-، و٣١ فـصلًا- أولهـا فصل: وأخرها فصل: بيان سبب اختيار الترك من غـير تحـريم-. وخلاصـة البحـث باسـم: «اختتـام الكلام بذكر حاصل الخلاف في هذه المسألة».

يقول المؤلف في المقدمة بعد الحمد والصلاة:

«فهـذه أطـراف وجمـل مـن الكـلام في حـديث الفاتحة خلف الإمام من طريق محمد بن إسحاق، وبيان ما فيه من ملاحظ السياق كشفًا عن معناه ومبنـاه، ورشـفًا عـن معنـاه ومغـزاه، لم أتفـرغ لإيضاحها إيضاحًا، كنت أرتضيه، ولا إلقاء على النجـي عـلى مـا يكفيـه، نعـم، مـداخل بحـث هـي شعوف وذكرى لاتغني عن مزاولة ريضة وإعمال فكرة، والشأو في الاعتبارات الآتية في الكلام شأو واسـع، والمـسافة مـن علـو العربيـة سـفر شاسـع، والموضوع خير كله. نعم، إن غرضي أن أحصل على غرض الشارع أولًا، والشأن في الغرض ثم لم أخرج عـن أقـوال أصـحابنا وإن نزلـتُ مـن بعـضهم إلى بعض، ولاينبغي لعاقل أن يفسد دينه بدنياه، ويجعل عاجلتـه عـلى عقبـاه، ومـا تـوفيقي إلا بـالله، وهـو حـسبي ونعـم الوكيـل. ولتُـسَمَّ بـ«نـزل الرقـاق في حديث ابن محمد بن إسحاق» أو بـ(فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب»[١٦].

ويقـول في اختتـام الكـلام: فـاعلم أن حاصـل الخلاف فيها: أن بعضهم ذهب إلى استثناء المقتدي مـن أوامرالقـراءة، وبعـضهم إلى استثناء الجهريـة لـه منهـا، وبعـضهم إلى اسـتثناء الفاتحـة مـن أوامـر الإنصات، فلم يمعن من قال -كشارح المنتقى-: إن الحاصل بعد حمل العام على الخاص هو مختاره، أخذًا بالزائـد، فالزائـد في إفـادة زيـادة، فـإن البـاب مـن مقاسـمة الأوصـل، و إعطـاء كـل ذي حـق حقـه، ووضع كل شيء في موضعه، وهو أيضًا أخذ بالزائد، فالزائد في إعطاء مزية.

هـذا، وفي الأخـذ بالزائـد فالزائـد ربـح، وفي إعطـاء كـل ذي حـق حقـه عـدل، والعـدل خـير مـن الارتيـاح، ولـولا هنـا واقعـة المنازعـة مـرة أو مـرتين لخلا النقل، وذخيرة الحديث عن حكم المقتدي في إباحـة القـراءة إباحـة مرجوحـة، فعـلى مـن اختـار القراءة أن يشكر من نازعه هناك، واستخرج إباحة مرجوحة، لا أن ينكر فضل من اختار الترك، فإنه على أول مرضاة الشارع، حيث ظهرت من سؤاله: «لعلكـم تقـرؤون خلـف إمـامكم»، وقولـه: «فلاتفعلوا»، بالفاء الفصيحية، (أي إن كنتم لابد فاعلين فلاتفعلوا إلا .....الخ).

وإذا أفضى الكلام بنا إلى هٰهنا: فاعلم أني ما كتبت هذه السطور لقصد الرد على الشافعية، وإنما

كتبتها ليعلم وجه الحنفية في اختيار الترك. فكنت من المنصتين لا المنازعين، فإن كنتَ ممن يستطيع القيام بالفرق بين هذين المقامين: فراعِه، وصل خلفي وأجزني، ولو بفاتحة الكتاب، فإنه لاصلاة لمن لم يقرأ بها، وحياك الله المعارف:

مساحب من جر الزقاق على الثرى

وطاقات ريحان جنى ويابس

وقفت بها صحبي فجددت عهدهم

و إني على أمثال تلك لحابس.

والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب».

ثم يقول في «عرض المؤلف»:

«الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فيقول محمد أنور شاه عفا الله عنه، خادم طلبة دارالعلوم بديوبند (الهند): كتبت هذه السطور العام الماضي لطلبة الحديث، وما نقلت فيها متون الأحاديث بتمامها[١٧].

٧. ضرب الخاتم على حدوث العالم

دراسة علمية رصينة واعية لقضية حدوث العالم، وإثبات الواجب، في أبيات شعرية، تتضمن براهين قاطعة على حدوث العالم، ورغم أن الدواني وغيره من المحققين سبقوه في هذه الدراسة إلا أنها رغم طولها وبسطتها لاتحمل عمقا ودقة بقدره، فقام الشيخ الكشميري – عام ١٣٣٥هـ بتنقية الأدلة السابقة من الشوائب، وزاد من عند نفسه خمسة عشر نوعًا من الأدلة الجديدة على إثبات الواجب، فاشتملت هذه الرسالة على أهم وأعمق المباحث في علم الطبيعيات و مسائل الكلام، وشرحًا وافيًا كافيًا لحل مسائل مستعصية من علم الحقائق. قام بطبعها أول مرة المجلس العلمي بدابيل. ثم صدرت له عدة طبعات من إدارة القرآن والعلوم الإسلامية/ بكراتشي: الطبعة الأولى: عام ١٩٣٥م/١٣٥٤هـ، والثانية: عام ١٩٩٦م/١٤١٦هـ، والثالثة: عام ٢٠٠٤م/١٤٢٤هـ، وهي طبعة محققة من غير إشارة إلى اسم المحقق في ٢٧ صفحة.

وتشتمل الرسالة على مقدمة، و(١٥١) بيتًا شعريًا في الموضوع.

يقول المؤلف في المقدمة:

«فهذه أبيات لي في إثبات الواجب تعالى شأنه، وقدم أسمائه وشؤونه، وحدوث ما سواه من كتم العدم من عالم الإمكان، وما في غضونه وغصونه، ورفع الفاعل الإلهي، وخفض الفاعل الطبيعي، وتوهمية المادة، واللواحق المادية، ودحض المعدات، والأسباب العادية، وتوجيه الأذهان والآذان إلى مسبب الأسباب، ومالك الرقاب ذوقًا، ووجدانًا، ودليلًا وبرهانًا، وعلمًا، وعرفانًا، و بصيرة،

وإيقانًا، يقدر قدرها من عني بهذه المسائل، ورمي إلى مفاوز الأفكار والمخايل، لم أتفرغ لإيضاحها وشرحها. ولم أر أيضًا رأي إعدامها وطرحها، فأفرغتها معرّاة كذلك في قالب الطبع اتكالًا على صرامة الرأي، وسلامة الطبع من الناظر الداري، والذكي الواري، والقارئ القاري، وسميتها «ضرب الخاتم على حدوث العالم». وكلما ذكرت في الحواشي رقم الصفحة، ولم أذكر الكتاب، فهو من الأسفار، فليراجع إليها، وقد كان ذلك عام ١٣٣٥هـ.

وأول هذه القصيدة:

تعالى الذي كان ولم يكن ما سوى
وأول ما جلى العماء بمصطفى
وسلسلة الأسباب سلسلة هوت
بها وربطوا شيئا فشيئا إلى المدى
مسبب أسباب ومالك ملكه
فمن آخذ مهوى ومن آخذ هدى
فسبحان من برهانه كل آية
وفي كل شأن منه شأن قد اختفى
كمسطرة قدر وكالسطر بعده
وجود له من بعد أن قدره جرى
وطبع حروف الاسم من ضرب خاتم
بجملته إذ كان نقشا كما اعتنى
وهذا رباط ثم بعد وجودها
كفرق وجود الشيء والشرط قد بدا
ضعاف وجودا فاستعانت بغيرها
فصار شروطا لا لعلية دعا
وحسن في شتى بدون تواصل
فأفرغ في سبك التناسب عند ذا

وآخر القصيدة:

وبعد صدور الفعل عن قوة جرت
فليس تلاشي؛ بل تطور في مدى
وقد قيل: إن القوتين ومادة
إذا اجتمعت أورثن ثالثة القوى
فخذ في حدوث العالم البحث موعبا
وهاك نكات فيه لم تلقها فها
وتوهية الأسباب والمادة التي
يغالط فيها لاناس بادئ ما بدا
فصورت في الأبيات تمثال فكرتي
وذكرتُ معنيا بأمثالها الحمى[١٨]

٨. بسط اليدين لنيل الفرقدين:

هذه الرسالة تكملة لرسالته «نيل الفرقدين»، في ٦٣ صفحة، باللغة العربية، قام بنشرها المجلس العلمي، دابيل. وطبعت الرسالة على هامش نيل الفرقدين، بعد أن نشرت قديمًا منفردة عن رسالة نيل الفرقدين. وتضم الرسالة (١٤٤) حديثا،

وأقـوال وتحقيقـات قـدامى المحـدثين ومتـأخريهم، وعلـماء العـصر الحـاضر، بالإضـافة إلى اسـتنباطات دقيقة علمية رصينة. يقول العلامة الكوثري في كتابه «تأنيب الخطيب فيما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب» ص ٨٤:

«وهـذا البحـث أي رفـع اليـدين طويـل الـذيل أُلفت فيه كتب خاصة من الجانبين، ومن أحسن ما ألـف في هـذا البـاب نيـل الفرقـدين وبـسط اليـدين كلاهما لمولانا العلامة الحبر البحر محمد أنور شاه الكـشميري وهـو جمـع فـى كتابـه اللبـابَ، فـشفى وكفى»[١٩].

٩. كف الستر عن مسألة الوتر

تحتـل مـسألة الـوتر أهميـة بالغـة مـن الناحيـة الحديثية، قام المؤلف فيها بتحديد صور الخلاف، وسببه، ثم شرح ما ورد في هذا الباب من الأحاديث شرحًا لايبقى معه تعارض بين حديثين، ويصدق كل واحد منها في موضعه، مما يؤيد المذهب الحنفي تأييدًا، وحاول المؤلف في هذه الرسالة وغيرها من رسـائله دراسـة الموضـوع دراسـة حديثيـة، ورفـع الخلاف بين السلف في ذلك ما وسعه ذلك، وحمل كـل واحـد مـن الأحاديث عـلى وجوه مناسبة، وأما تأييد المـذهب الحنفي ففي الدرجة الثانية، وبالقدر الذي يدل معه على المذهب الحنفي من غير تأويل.

وطبعـت هـذه الرسـالة أول مـرة مـن المجلـس العلمـي/دابيـل، في نحـو (٩٨) صـفحة، ثـم طبعتـه دارالبـشائر ضـمن (مجمـوع فيـه ثـلاث رسـائل للكشميري) باعتناء محمد رحمة الله حافظ الندوي، أول مرة عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، في(٢٦٦) صفحة. وتشتمل الرسالة على مقدمة، و(١٢) فصلا، وخاتمة بدعاء الوتر. ويبلغ عدد المصادر التي استقى منها المؤلـف مـادة الكتـاب أو أشـار إليهـا – مـن غـير الحديثية- نحو١٤٤ مصدرا.

ويقول المؤلف في المقدمة:

«فهذه رسالة في الكشف عن مسألة الوتر، وما فيهـا مـن الاشـتباه العظـيم لأهـل العلـم والـذكر، و سميتها «كشف الستر عن صلاة الوتر»، سايرت بها مـع الخلـص الرفـاق مـن شـظف نجـد إلى ريـف العـراق..... ومعلـوم أن الأمـر يحتـاج إلى ذوق ودرايـة، وفقـه في الـنفس واعتبـار، ورؤيـة ورواية، والمرء إذا لم يعط من نفسه شيئا من الجد والاجتهاد، لم يفده بحث الناس فيما استراد من المراد، و «من لم يـذق لم يـدر»، مثـل سـائر، وإذا ذاق وادَّرى فلـه مـن تلقائه حكَم وبصائر. وبعد هذا كله، فكل أمر من الله بدؤه وإليه صائر»[٢٠].

ويقول في الخاتمة:

«ولنجعل ختام الكلام في هذا المقام ما علمه

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنه السيد الحسن أن يقوله في آخر الوتر من طريق أبي الحوراء - بالهاء المهملة- وهو ربيعة بن شيبان- عنه وهو: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَ تَعَالَيْتَ».... ثم قال: وهذا آخر الرسالة وختام المقالة، وما أردت بها إلا دعوة صالحة من طلاب العلم بحسن العاقبة، وخير الخاتمة لمؤلفها الأحقر الأفقر....»[٢١].

وتشتمل الرسالة على ١٢ فصلا، على النحو التالي:

١. فصل في تنقيح ملاحظة في أحاديث صلاة الوتر

٢. فصل في منشأ الاختلاف

٣. فصل في حديث:صلاة الليل مثنى مثنى.

٤. فصل في شرح جملي لهذا الحديث

٥. فصل آخر في هذا المعنى

٦. فصل في حديث: فإذا خشي أحدكم الصبح صلى واحدة

٧. فصل في بعض الأحاديث الفعلية المحتاجة ...ليخلص منها الوتر.

٨. فصل في حديث ابن عباس:ليلة مبيته في بيت خاله ميمونة رضي الله عنها

٩. فصل في مثله حديث الحكم عن مقسم عن أم سلمة رضي الله عنها

١٠. فصل في أشياء بقيت في هذا الباب

١١. فصل في رفع اليدين في الدعاء، وما يتعلق به[٢٢].

١٠. مرقاة الطارَم لحدوث العالم

بحث قيم في حدوث العالم، باللغة العربية، وتتناثر هنا وهنا أبيات فارسية أعدها المؤلف عام ١٣٥١هـ. وطبعت ضمن منشورات المجلس العلمي، بعنوان (مجموعة رسائل الكشميري)، وقامت إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بطبعه مرتين: الأولى عام١٩٣٢م/ ١٣٥١هـ، والثانية عام: ٢٠٠٤م/ ١٤٢٤هـ، في (٦٧) صفحة مع تحقيق وتعليقات لايعرف صاحبها. وفاتحة الرسالة مقدمةٌ من الكشميري رحمه الله، ثم من أبرز عناوينها: بحث حدوث العالم، هل الإرادة مستلزمة لحدوث المراد؟ أنواع العالم، بطلان تقسيم الحادث، ما يطلق عليه المادة، عدم انقسام علمه تعالى عند ابن سينا، أقسام الفعل، أشعار فارسية متعلقة بحدوث العالم، ربط الحادث بالقديم: قالوا: لا يكون الحدوث إلا بأصل قديم وشرط حادث، هل الوجود عين ذات الله تعالى أو زائد عنها؟، مراتب الكثرة، أشعار

متعلقة بحدوث العالم بالعربية[٢٣].

يقول المؤلف في مقدمته على الرسالة:

«فهذه رسالة ومقالة في مسألة حدوث العالم»، التي هي من قديم الزمان تحديثا وحديثا، قد سعى الناس فيها قديما وحديثا، سعيا حثيثا، لم يثبت فيها للناس قدم، وأنه كيف الوجود بعد العدم؟ وكيف يعقل حدوث الزمان؟ ومن أي حين ابتُدِئ به من الأحيان؟ وما كان حين لم يكن من التمادي المتوهم في الأذهان؟... وهذه الرسالة من نفثات صدري، ونتائج فكري، لعل المعتني بها يقدر قدر من عني بها وعاناها، ويحرز ما أتعب به نفسه من الأفكار، وبُلِيَ بها وقاساها، وما أبدى من فرق الصديع، وصديع الفجر، ولقد صدق من قال: إن من لم يذق لم يدرِ.... وسميتها بـ(مرقاة الطارَم لحدوث العالم»، ثم إن الدلائل على الحدوث، إنما سردتها في قصيدتي (ضرب الخاتم)، وقد طبعت وشاعت، وإنما أردت بهذه الرسالة تصوير حدوث الزمان، وتقريره، وتقريبه إلى الذهن، وتيسيره، والله الهادي، لا هادي إلا هو، وذلك سنة ١٣٥١هـ»[٢٤].

ووصفه العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري في «تأنيب الخطيب» (٥٥) بـ«العلامة الحبر البحر محمد أنورشاه الكشميري: وذكره متكلم عصره شيخ الإسلام مصطفى صبر التركي نزيل القاهرة في كتابه (٥٦) «موقف العلم والعقل والدين» ما لفظه: «رأيت في «مرقاة الطارم على حدوث العالم» لعالم الهند الكبير محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله، فذكر المسألة ثم قال: فسرني أن اتفقنا في الرأي».اهـ[٢٥].

١١. خزائن الأسرار:

رسالة في (٦٥) صفحة، قام المجلس العلمي بنشرها عام١٣٥٤هـ، بعد وفاة المؤلف، و هوكتاب في الأوراد والأذكار، اختارها من كتاب الحيوان للدميري، ولم يأخذ منها إلا ماكان من كتب الأحاديث والسير، وأبدى فيها رأيه أيضًا حينا بعد حين.

وكانت مسودة الخزائن احترقت، فضاع بعض أجزائها، فقام ختنه الشيخ أحمد رضا البجنوري بالمقابلة مع الأصل، وأكمله، ثم قام المجلس العلمي بنشر الرسالة. وسماها الشيخ محمد يوسف البنوري في الجزء الأول من حياة أنور ص ٢٢٣ بخزينة الأسرار. والصحيح في اسمه هو الأول[٢٦].

١٢. الإيناس بإتيان إلياس عليه السلام:

رسالة مختصرة في (١٩) صفحة في تحقيق اسم إلياس عليه السلام، بدأها بقوله: «الحمد لله وكفى والصلاة على عباده الذين اصطفى وبعد، فإني ما كنت أردت أن إلياء وإلياس اسمان ولفظان، بل هما

لغتان وضبطان في لفظ، وقيل: إن إلياء أو إلياه – بالهاء الغير الملفوظة على المعروف في أواخر الأسماء العبرية- اسم عبري، وقد يقال: إلياهو وأن إلياس أو إلياسين معربه، وإنما كنت أردت أن له معنى علميًّا ومعنى وصفيًّا، وقد أطلق على خاتم الأنبياء عليه السلام – بالمعنى الوصفي، وبه فسره اليهود أنه نبي منتظر عظيم الشأن، خلافًا لإنجيليين على عادتهم بالباطلة في إلصاقهم الأبناء السابقة بعيسى – عليه السلام – وبحاله بحق أو بغير حق، حتى حقق كأنهم يخترعون القصة ويسوونها حتى يلصق بها النبأ السابق(٢٧).

وختمها بقوله: «فمن ادعى أن الله – سبحانه – سماه بكذا وكذا يسلمه من اتبعه على الإلحاد في الأسماء. وأما أن يصدق الأسماء المعروفة لغيره على نفسه، وأنه المراد بها في القرآن والحديث – فهو كفر وإلحاد منه، لا يتبعه فيه إلا من أعمى الله بصيرته؛ فإن إطلاق الأسماء يحتاج إلى الإعلام بوضعها أولا لأحد وتعيينه له، لا أن يدعي عند الإطلاق في ما سيأتي أنها له بدون سبق الإعلام بوضع جديد له سابق على الإطلاق في ما بعد، وإذا ادعى تسمية الله يتبعه فيه أذنابه، ولكن ليس له حق أن يحول أسماء معروفة في كلام غيره عرف تخاطبه وتحاوره إلى نفسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(٢٨).

١٣. صدع النقاب عن جساسة الفنجاب:

أبيات شعرية باللغة العربية في الرد على الميرزا القادياني، ألحقها العلامة الكشميري بكتابه «إكفار الملحدين في شيء من ضروريات الدين»، وعنوانها «قصيدة صماء للمؤلف في تقديس عيسى عليه السلام من سبائب القادياني اللعين»، وهي (٧٥) بيتًا، استلبها الشيخ محمد إدريس – مدرس أول بدارالعلوم/ديوبند-، وقام بشرحه باللغة الأردية مع زيادة بعض الأبيات من عنده. وأول هذه الأبيات:

ألايا عباد الله قوموا وقوموا
خطوبا ألمت ما لهن يدان

وآخرها

وصلى الله على ختم النبيين، دائما
وسلم مادام اعتلى القمران

قام بطبعها مطبعة القاسمي/ديوبندفي (٢٤) صفحة بالقطع المتوسط، ولم أجد النسخة العربية وحدها. وتوجد في مكتبة دارالعلوم/ديوبند في الجناح الخاص بالعلامة الكشميري هذه النسخة الأردية، برقم عام:٣١٧٦٣، والرقم الخاص بالجناح(١٦).

١٤. الإتحاف لمذهب الأحناف:

رسالة في اللغة العربية وهي تعليقات على

كتاب «آثار السنن» لصاحبه المحدث الشيخ ظهير أحسن النيموي، يقول الشيخ محمد يوسف البنوري في مقدمته:

«وكان كلما يؤلف- النيموي- قطعة من كتابه يرسلها إلى المحدث الكبير إمام العصر الشيخ محمد أنور الكشميري- الذي كان آية من آيات الله في الجمع بين التبحر في العلوم، ودقة النظر، والذوق السليم المعتدل، والاطلاع الواسع على مذاهب فقهاء الأمة، ببصيرة نافذة وإبرام ونقض، وإتمام، وكأن الشيخ رحمه الله كان موافقًا له في ذلك التأليف، كما ذكره في نيل الفرقدين. ولاشك أن الشيخ كان مبتهجًا بكتابه معجبًا بأسلوبه، فلما تم طبع الكتاب أخذ الشيخ يطالعه، ويزيد عليه من أدلة وأبحاث، ونكات، وفوائد، وغرر نقول ما يساوي بعضها رحلة، ويقيدها على هامشه، وطوره، وبين أسطره بكل باب ما يلائمه، وكلما مر عليه شيء له صلة بالموضوع في مطالعته قيده هناك، إما بنقل عبارة أو حوالة برمز صفحة مرقومة، إن كان الكتاب مطبوعا، أو نقل لفظه إن كان مخطوطا، فتارة بعبارة، وتارة بإشارة، أو بدا له شيء من تأييده وترديده قيده هناك حتى أصبحت صفحة الكتاب كالوشي الدقيق جاءت فيها نفائس من أفكاره، وبدائع من غرر نقوله، بكل باب، وكنت قد اشتغلت برهة بتخريج تلك الحوالات، واستخراج تلك العبارات، بأمره رحمه الله فكانت صفحة واحدة من الكتاب تخريجه يملأ عدة أوراق، وكان رحمه الله يتمنى أن لوطبع تلك التخريجات لنفعت أهل العلم، فهذه هي مذكرة ماثلة أمامك بنفسها، وفصها، بقلم الشيخ نفسه وخطه....»[٢٩].

قام بطبع هذه التعليقات- الإتحاف لمذهب الأحناف- المجلس العلمي بكراتشي، وكذلك في «سملك» في الهند في (١٢)صفحة.

وجاء في أول هذه التعليقات:

«المقرإيُّ: هكذا ضبطًا ورسمًا في المؤتلف والمختلف للأزدي، وكذا: المرإيُّ في امرئ القيس، وهو المَقْريُّ، نسبة إلى مقرى، عند ياقوت...»[٣٠].

وفي آخر صفحة منها:

«حديث الحشر على ثلاث طرائق عند البخاري، ذكر في الفتح أنه ليس فيه لفظ (يوم القيامة)، وهو ثابت في النسخة الأحمدية، وكذا عند الترمذي من بني إسرائيل»[٣١]. والرسالة في مكتبة دارالعلوم/ديوبند في الجناح الخاص بالعلامة الكشميري بالرقم العام (٧٩٠٤٩) والرقم الخاص بالجناح (٢٧).

رسائل لم أطلع على تفاصيل حولها:

وهناك عدة رسائل لم أطلع على تفاصيلها،

وهي ثماني رسائل:

١. رسالة في الهيئة ألفها لبعض أصحابه.

٢. رسالة في مسألة الهندسة وعلم المرايا والمناظر.

٣. رسالة في حقيقة العلم.

٤. رسالة في مسألة يا شيخ عبد القادر شيئا لله.

٥. رسالة في مسألة الذبيحة لغير الله.

٦. رسالة في علم المعاني مما استدركه على السكاكي والخطيب، استنبطها الشيخ من كتاب «سيبويه»، والكشاف وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي.

٧. مقامات أدبية على نهج مقامات الحريري، منها منقوط كله، ومنها غير منقوط كله، ومنها كالمقامة المراغية إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة(٣٢).

٨. رسالة في مسألة صلاة الجمعة واختلاف الأئمة في شروط أدائها(٣٣).

مصادر البحث:

١. أكابر علماء دِيوبَنْد للشيخ محمد أكبر شاه البخاري، ط: إدارة إسلاميات/باكستان.

٢. إكفار الملحدين، للعلامة أنورشاه الكشميري، ط: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي.

٣. أنور السوانح، الدكتور/غلام محمد كجهي، ط: دارالكتاب، لاهور.

٤. أنور السوانح، للدكتور/غلام محمد كجهي، ط: دارالكتاب/لاهور.

٥. الإيناس بإتيان إلياس عليه السلام، الناشر: المجلس العلمي /كراتشي.

٦. تاريخ الجامعة الإسلامية (دابيل، للشيخ فضل الرحمن الأعظمي، ط: الجامعة الإسلامية: دابيل، غجرات.

٧. تاريخ دار العلوم (دِيوبَنْد، للسيد محبوب الرضوي، ط: مكتبة الميزان/لاهور.

٨. تحية الإسلام مع عقيدة الإسلام، تقديم: العلامة محمد يوسف البنوري، ط: شركة حاشر للطباعة، كراتشي.

٩. التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للعلامة الكشميري، ت:عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية/حلب.

١٠. تصوير أنور، السيد أنظر شاه الكشميري، ط: معهد الأنور، ديوبند.

١١. تقدس أنور، لعبد الرحمن كوندو، ط: الجامعة العربية أحسن العلوم (كراتشي).

١٢. حياة أنور للأستاذ أزهر شاه قيصر، ط:شاه منزل/ديوبند.

١٣. عقيدة الإسلام، للعلامة أنور شاه الكشميري، ط: مطبعة القاسمي/ديوبند، وشركة حاشر للبطاعة/ كراتشي.

١٤. علماء دِيوبَنْد اور علم حديث، للشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر:مكتب الحفل المئوي لدارالعلوم/ديوبند.

١٥. علماء دِيوبَنْد وخدماتهم في علم الحديث، الدكتور عبد الرحمن البرني، ط: أكاديمية شيخ الهند بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند.

١٦. كشف الستر، للعلامة الكشميري، ط: المجلس العلمي/كراتشي.

١٧. مجموع فيه ثلاث رسائل، تحقيق: رحمة الله، ط: دارالبشائر، لبنان.

١٨. مشاهير علماء دِيوبَنْد، للحافظ القارئ فيوض الرحمن، ط: المكتبة العزيزية/باكستان.

١٩. مشاهير علماء دار العلوم (دِيوبَنْد) للمفتي ظفير الدين، ط:مكتب الحفل المئوي لدار العلوم/ديوبند.

٢٠. موسوعة علماء ديوبند، للكاتب، ط: مكتبة إسماعيل بريطانيا.

٢١. نزهة الخواطرللشيخ عبد الحي بن فخر الدين، المكتبة الشاملة.
٢٢. نقش دوام -ترجمة العلامة الكَشْمِيرِيّ- للشيخ أنظر شاه الكَشْمِيرِيّ، ط: مكتبة شاه، دِيوبَنْد.
٢٣. نيل الفرقدين، للعلامة الكشميري، ط: المجلس العلمي، دابيل.
٢٤. نيل الفرقدين، للكشميري، ط: المجلس العلمي عام ١٣٥٠هـ.

الهوامش:

(١) بحث مقدم إلى مؤتمر حول العلامة أنور شاه الكشميري رحمه الله المنعقد في ١٣- ١٤/ديسمبر عام ٢٠٢٥م، في مدينة ديوبند.

(٢) راجع: موسوعة علماء ديوبند، ص:٤٧٠، ط: مكتبة إسماعيل بريطانيا؛ نزهة الخواطر ٨/ ١٢٨، تاريخ دار العلوم (دِيوبَنْد) ٢٠١/٢، مشاهير علماء دِيوبَنْد ١/ ٤٨٣-٤٨٦، أكابر علماء دِيوبَنْد للشيخ محمد أكبر شاه البخاري، ص٩٥، علماء دِيوبَنْد وخدماتهم في علم الحديث، ص١٠٦، مشاهير علماء دارالعلوم (دِيوبَنْد) للمفتي ظفير الدين، ص٥٢، علماء دِيوبَنْد اور علم حديث، ص٦٥، تاريخ الجامعة الإسلامية (دابيل)، ص٢٩١، «نقش دوام» -ترجمة العلامة الكَشْمِيرِيّ- للشيخ أنظر شاه الكَشْمِيرِيّ، ط: مكتبة شاه، دِيوبَنْد، تذكرة الأنور للأستاذ عبد الرحمن كوندو، حياة أنور للأستاذ أزهر شاه قيصر.

(٣) إكفار الملحدين (كراتشي: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية)، ص ٢.

(٤) إكفار الملحدين، له، ص ١٣١-١٣٢.

(٥) أنور السوانح، ص ٤٣٥.

(٦) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص ٢٩٣؛ تقدس أنور، لعبد الرحمن كوندو (كراتشي: الجامعة العربية أحسن العلوم) ص٢٤٢.

(٧) تقدمة الشيخ البنوري على عقيدة الإسلام، ص١٣.

(٨) عقيدة الإسلام، ص١٨، ط: مطبة القاسمي؛ تقدس أنور، ص٢٤٢؛ تصوير أنور، ص٣٥٨.

(٩) عقيدة الإسلام ص٣، ط: شركة حاشر للبطاعة/ كراتشي.

(١٠) عقيدة الإسلام، ص ٣٢١.

(١١) تصوير أنور، السيد أنظر شاه الكشميري، ص ٣٥٨.

(١٢) تحية الإسلام مع عقيدة الإسلام، ص ١، تقديم: العلامة محمد يوسف البنوري، ط: شركة حاشر للطباعة، كراتشي.

(١٣) تقدس أنور، ص٢٤٢؛ تصوير أنور، السيد أنظر شاه الكشميري، ص ٣٥٨، ط: معهد الأنور، ديوبند.

(١٤) نيل الفرقدين (دابيل: المجلس العلمي) ص ٢-٣؛ تقدس أنور، ص٢٤٢؛ تصوير أنور، ص ٣٥٩؛ أنور السوانح، ص٤٣٩.

(١٥) نيل الفرقدين (دابيل: المجلس العلمي) ص ١٤٤-١٤٥.

(١٦) رحمة الله حافظ، ص ٥-٧.

(١٧) رحمة الله حافظ، مجموع فيه ثلاث رسائل (لبنان: دارالبشائر)، ص ٥- ٢٣٣.

(١٨) تقدس أنور، ص٢٤٢؛ تصوير أنور، ص ٣٦٠.

(١٩) أنور السوانح، ص ٤٣٩؛ تقدس أنور، ص٢٤٤؛ تصوير أنور، ص ٣٦٠.

(٢٠) كشف الستر، ص ٦.

(٢١) كشف الستر، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢٢) أنور السوانح، ص٤٤٠ وما بعدها؛ تصوير أنور، ص ٣٦٠.

(٢٣) أنور السوانح، ص ٤٤٢ح تقدس أنور، ص٢٤٤.

(٢٤) نفس المصدر؛ تصوير أنور، ص ١٦١.

(٢٥) العلامة محمد أنور شاه الكشميري في ضوء إنتاجاته الأدبية والعلمية، السيد شاهد رسول كا كاخيل، ص ١٢٧.

(٢٦) أنور السوانح، ص ٢٤٩؛ تقدس أنور، ص٢٤٧؛ تصوير أنور، ص ١٦١.

(٢٧) الإيناس بإتيان إلياس عليه السلام، الناشر: المجلس العلمي /كراتشي، ص٢.

(٢٨) الإيناس بإتيان إلياس عليه السلام، ص ١٩.

(٢٩) مقدمته على الرسالة.

(٣٠) الإتحاف، ص ١.

(٣١) الإتحاف، ص ١٢.

(٣٢) رحمة الله ص ٤٦.

(٣٣) نفس المصدر.

* * *

اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية تعقد دورة هامة في رحاب الجامعة الإسلامية دار العلوم/ديوبند

إعداد الطالب: عبد الله نظامي الأعظمي
مراجعة: التحرير

عقدت اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية التابعة للجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند دورتها في دار الضيوف التابعة لها يوم الثلاثاء: ١٩/جمادى الأولى عام ١٤٤٧هـ الموافق ١١/أكتوبر عام ٢٠٢٥م برئاسة فضيلة الشيخ المفتي أبوالقاسم النعماني – رئيس الجامعة، وشيخ الحديث الشريف بها، والأمين العام للرابطة–، وتوزعت أعمال الدورة على جلستين، عقدت الجلسة الأولى الافتتاحية الساعة التاسعة والنصف صباحًا بتلاوة آي من القرآن الكريم تشرف بها المقرئ عبد الرؤوف – أستاذ التجويد والقراءات بالجامعة – .

وأصدرت الجلسة قرارات وتوصيات تخص الملاحظة والتخطيط لإجراءات الحكومة الهندية ضد المدارس والكتاتيب، وتحسينَ وإحكامَ نظام التعليم والتربية، والرد على الفرق الضالة المضلة ومطاردتها، ومسيرة إصلاح المجتمع الإسلامي، وضرورة مواجهة الردة وكبح جماحها وفرملتها، التي تتفشى يومًا فيومًا بين أبناء وبنات المسلمين.

وقال فضيلة الأمين العام للرابطة في كلمته التي ألقاها على أعضاء الرابطة وممثلي المدارس الإسلامية المنتشرة في الولايات الهندية المختلفة: «هذه الدورة من دورات اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية تهدف إلى تنشيط المدارس الإسلامية وتعزيز نظام ا لتعليم والتربية، وحل مشكلات المدارس الإسلامية بالتشاور».

واستطرد قائلًا: «علينا أن نضطلع بنظام التعليم والتربية وأمور المدارس الداخلية والخارجية، مستعدين للإجابة عما يثار من التساؤلات من قبل الحكومة نظرًا إلى أوضاع البلاد الحالية».

وأكد أن المدارس الإسلامية ليست مجرد معاهد علمية وتربوية؛ بل تهدف إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية ومنافحتها، وإلى ترسيخ نمط الحياة الإسلامي بين عامة الناس.

وأفاد أن الانحرافات العقدية والفكرية بدأت تتسلل اليوم إلى عقول الشباب، وبلغ خطر الارتداد والإلحاد مبلغه، فمن الواجب أن نركز عناية خاصة

على مواجهة هذه الفتن العمياء ومقاومتها، وأن ننبّه أجيال المسلمين تجاهها.

وقال فضيلة الشيخ أرشد المدني حفظه الله ورعاه – رئيس هيئة التدريس بالجامعة -: «في هذا الوقت تكثر الفتن، وتتلاحق الأزمات، وتتلاطم المحن، وتتوالى أنباء الارتداد عن الدين في أبناء المسلمين وبناتهم، ويصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا لا يعدل جناح بعوضة، أضف إلى ذلك أن القوى الطائفية تنسج ا لمؤامرات والدسائس علنًا ومن وراء الحجاب وغير استحياء، وتجنّد كل إمكانياتها وطاقاتها ضد الإسلام والمسلمين، وتريد جميع القوى المعادية أن تصرف المسلمين جميعًا عن عقائدهم واتجاهاتهم، فلا بدّ للمنتمين إلى المدارس الإسلامية من الوقوف في وجه الضلال والانحراف كالبنيان المرصوص الذي يشدّ بعضه بعضًا».

وأضاف فضيلته قائلًا: «إن شيخ الهند محمود حسن الديوبندي – تغمده الله تعالى بغفرانه – قال: «إن الإسلام ليس مجرد فهم الدين بمعنى الكلمة، بل هو جامع بين الدين والسياسة والاقتصاد وغيرها، وهو برنامج متكامل يضع أمام الإنسان نظامًا كاملًا للحياة».

«فيحسن بنا أن نشمّر عن ساعد الجد للحصول على الحقوق الدينية والثقافية، التي تمنحناها القوانين الهندية، ولإصلاح المجتمع الإسلامي والشباب من المسلمين».

وممن تحدث في الجلسة الأولى من الدورة الشيخ مشتاق أحمد عنفر – رئيس هيئة التعليم والتطوير لجميع ولاية آسام -، والشيخ أشهد الرشيدي – مدير مدرسة شاهي/ مراد آباد.

وقدّم الشيخ الأستاذ شوكت علي البستوي – المشرف العام على الرابطة وأستاذ الحديث الشريف بالجامعة – تقرير الدورة السابقة للجنة وتقريرًا سنويًّا عن الرابطة.

وانتهت الجلسة الأولى في الساعة الثانية عشرة والربع ظهرًا بدعاء فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله ورعاه.

واستهلت الجلسة الثانية للدورة بعد صلاة المغرب في دار الضيوف التابعة للجامعة برئاسة فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله بتلاوة آي من القرآن الكريم سعد بها المقرئ محمد آفتاب الأمروهوي – أستاذ التجويد والقراءات بالجامعة -.

ذكر فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله في خطبته الرئاسية أن السلطات الحكومية يجرون فحص المدارس الإسلامية في بعض الولايات الهندية منذ أشهر قليلة ماضية، مما أدّى إلى أن بعضها قد أغلقت، وبعضها وُجّه إليه إشعار

الحكومة، فمن الضروري – قبل فوات الأوان – أن نتهيأ للرد عن السؤالات الحكومية على وجه لا غبار عليه، كما أنه من اللازم أن نتوجّه إلى تحسين نظام إدارتها الداخلية، ومراجعة حساباتها وغيرها من الأمور على وفق الأصول والضوابط الحكومية.

وأعرب فضيلة الشيخ أرشد المدني حفظه الله ورعاه – رئيس هيئة التدريس بالجامعة – عن قلقه العميق إزاء الفرق الضالة المضلة: الفرقة الشكيلية والكوهر شاهية وما إلى ذلك من الفرق ا لتي توسع نطاقها في الهند، وقال: «إن الفتن العمياء التي تظهر قرب القيامة، والتي بيّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتفصيل، وذكر سبل مقاومتها، وردت في أبواب الفتن من كتب الأحاديث الشريفة، فعلينا أن ندحضها في ضوء ما قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وأظهر فضيلته مخاوفه الجسيمة عن نزعة التحرر الفكري والتعليم العصري لدى الأجيال الجديدة قائلًا: «على الوالدين والمشرفين والمعلمين أن يولوا عناية خاصة، ويربّوا أولادهم وطلابهم تربية صحيحة».

وممن تحدث في هذه الجلسة الثانية من الدورة فضيلة الشيخ نعمت الله الأعظمي – أستاذ الحديث بالجامعة–، والشيخ المفتي محمد راشد الأعظمي – وكيل الجامعة–، والشيخ رحمت الله مير القاسمي، والشيخ حسن محمود الخيروي، والشيخ صديق الله الجودري، والشيخ المقرئ شوكت علي الويتي، الشيخ المفتي أشفاق أحمد الأعظمي، والشيخ منظور عالم من ولاية «كرناتكا»، والشيخ عبد القادر من ولاية «آسام»، والشيخ مجاهد الإسلام من ولاية «آسام»، والشيخ المفتي إقبال أحمد الكانفوري، والحافظ عبد القدوس هادي الكانفوري، والشيخ زبير أحمد من ولاية «هريانه»، والشيخ ممتاز أحمد القاسمي من ولاية «هماجل براديش»، والشيخ محمد أحمد خان من ولاية «مادهيا براديش»، والشيخ محمد إقبال من ولاية «تملنادو»، والشيخ محمد نجم الحق المظاهري من ولاية «بنجال الغربية»، والشيخ عبد الكريم من ولاية «آندهرا براديش» ومن إليهم.

وممن حضر جلسات الدورة كل من فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي –وكيل الجامعة–، والشيخ محمد أمين البالنفوري، والشيخ مجيب الله الغوندوي، والشيخ المفتي محمد يوسف التاؤلوي، والشيخ محمد نسيم الباره بنكوي، والشيخ محمد سلمان البجنوري، والشيخ حسين أحمد الهريدواري، والشيخ محمد عاقل الكري دولتي –عضو المجلس الاستشاري للجامعة–، والمفتي محمد خليل القاسمي –عضو المجلس الاستشاري للجامعة–، والشيخ السيد محمد صالح المظاهري –الأمين العام لجامعة مظاهر العلوم/ سهارنفور–، والشيخ محمد أسجد

القاسمي المراد آبادي، والشيخ عبد القوي الحيدر آبادي، والشيخ المقرئ محمد أمين من ولاية «راجستان»، والشيخ محمد رياست علي من ولاية «أتراكندا»، والشيخ زين العابدين من ولاية «كرناتكا»، والشيخ علي حسن المظاهري من ولاية «هريانه»، والشيخ المفتي محمد فاروق من ولاية «أريشه»، والشيخ المفتي سراج أحمد من ولاية «منيفور»، والشيخ محمد إبراهيم من ولاية «كيرالا»، والشيخ المفتي صلاح الدين من ولاية «تملنادو»، والشيخ محمد إسحاق من ولاية «جاركندا»، والشيخ عبد القديم الهافوري، والشيخ شوكت علي الجنجنوي، والشيخ المفتي محمد امتياز الولنوي من ولاية «غجرات»، والشيخ المفتي ذكاوت حسين القاسمي الدهلوي، والشيخ المفتي طيب الرحمان من ولاية «تريبورا»، والشيخ عنايت الله من ولاية «كشمير»، والشيخ محمد هارون المدني النيبالي ومن إليهم.

وأبدت الدورة عن غاية استيائها وأسفها على وفاة عدد من الشخصيات العلمية والثقافية البارزة في البلاد، منهم: فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي – عضو المجلس الاستشاري للجامعة، وعضو المجلس التنفيذي للرابطة –، وفضيلة الشيخ محمد عاقل السهارنفوري – عضو المجلس الاستشاري للجامعة –، و والدة فضيلة الشيخ رحمت الله مير القاسمي – عضو المجلس الاستشاري للجامعة –، وفضيلة الشيخ العلامة قمر الدين الغوركفوري – أستاذ الحديث بالجامعة، وعضو المجلس ا لتنفيذي للرابطة –، والشيخ الحاج محمد هاشم – والد فضيلة الشيخ ملك محمد إبراهيم – عضو المجلس الاستشاري للجامعة –، وزوجة فضيلة الشيخ نعمت الله الأعظمي – أستاذ الحديث بالجامعة –، والشيخ محمد سعيدي – مدير جامعة مظاهر العلوم/ سهارنفور –، والشيخ صدر الدين – أستاذ الحديث والفقه في مدرسة شاهي/ مراد آباد –، والشيخ عبد الرب الأعظمي – رئيس جمعية العلماء بولاية «أترابراديش» –، والحافظ شبير أحمد – رئيس جمعية العلماء بولاية «تلنغانه»–، والشيخ محمد هاشم – مدير جامعة كاشف العلوم/ جهتمل فور بمديرية سهارنفور – وآخرون جميعًا.

وقام الشيخ شوكت على البستوي بإدارة الجلستين بجانب إسداء الشكر إلى الضيوف الكرام، وانتهت الجلسة الثانية الساعة الثامنة والنصف ليلًا بدعاء فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني رئيس الجامعة وشيخ الحديث الشريف بها والأمين العام للرابطة.

وبعد مناقشة أساليب الحفاظ على ممتلكات الأوقاف وتسجيل التفاصيل والبيانات الحالية لأراضي الأوقاف المسجلة على "Ummeed Portal" أصدرت الدورة قرارات تتعلق بها.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ١٠٠

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي
فالناس بين معموم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا يحاط به
إلا إحاطة منقوص بمنقوص

وقال الفرزدق:

ألا خبروني أيها الناس إنما
سألت ومن يسأل عن العلم يعلم
سؤال امرئ لم يغفل العلم صدره
وما السائل الواعي الأحاديث كالعمي

«والرجل ذو المروءة والعلم يكون خامل الذكر خافض المنزلة، فتأبى منزلته إلا أن تشب وترتفع، كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا».

وكلما كان الهدف ساميًا، والغرض عاليًا، والمنزل بعيدًا تطلب من الجد والاجتهاد والاستماتة واحتمال المشاق، وقرح المآقي وإتعاب الجسم، وإنهاك القوى بقدره، وكلما عظمت الطموحات تطلبت من التضحيات الكبيرة ولاشك، مصداقًا لقول الشاعر المتنبئ:

إذا كانت النفوس كبارًا
تعبت في مرادها الأجسامُ

واليوم إذ خارت العزائم، وضعفت الهمم، وثبطت الإرادات عادت التضحيات التي نقرأها عند السلف الصالح في طلب العلم واستقائه وتحصيله أصبح يقول:

هل صح قول من الحاكي فنقبله
أم كل ذلك أباطيل وأسمار

وهذا الإمام الفروخ القيرواني جاء في ترجمته في عدد من كتب التراجم، أنه قال: «لما أتيت الكوفة، وأكثر أملي السماع من سليمان بن مهران: الأعمش، فسألت عنه، فقيل لي: غضب على أصحاب الحديث، فحلف أن لا يسمعهم مدة.

فكنت أختلف إلى باب داره لعلي أصل إليه؟ فلم أقدر على ذلك! فجلست يومًا على بابه، وأنا متفكر في غربتي وما حرِمته من السماع منه! إذ فتحت جارية بابه يومًا، وخرجت منه، فقالت لي:ما بالك على بابنا؟! فقلت: أنا رجل غريب، وأعلمتها بخبري.

قالـت: وأيـن بلـدكم؟ قلـت: إفريقيـة. فانـشرحت إلي، وقالـت: تعـرف القـيروان؟ قلـت: أنـا مـن أهلهـا. قالـت: تعـرف دار ابـن فـروخ؟ قلـت: أنـا هـو، فتـأملتني، ثـم قالـت: عبدالله؟ قلت: نعم، وإذا هي جارية لنا بعناها صغيرة، فسارعت إلى الأعمش، وقالت له: إن مـولاي الـذي كنـت أخـبرك بخـبره بالبـاب، فأمرها بإدخالي، فدخلت: وأسكنني بيتًا قبالة بيته، فسمعت منه وحدثني، وقد حرم سائر الناس، إلى أن قضيت أربي منه.

ونعم ما قيل:

ذَهَبَ الَّذينَ حَمَوا حَقيقَةَ عِلمِهِم

وَاِستَعذَبوا فيها العَذابَ وَبيلا

فلابد في طلب العلم من احتمال المشاق، ومن الصبر على شدة المعلم وقسوته، ونعم ما قال الإمام الشافعي في ديوانه:

تصبر على مر الجفا من معلم

فإن رسوب العلم في نفراته

ومن لم يذق مر التعلم ساعة

تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه

فكبِّر عليه أربعًا لوفاته

وذات الفتى – والله– بالعلم والتقى

إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته.

وقال الهذلي:

وإن سيادة الأقوام فاعلم

لها صعداء مطلبها طويل

أترجو أن تسود ولا تعنّى

وكيف يسود ذو الدّعة البخيل

وربما يكون الشيخ لحمل الهموم وكثرة الـضغوط عليـه لاتلطـف عباراتـه، ولايـرق كلامه، وتنبو ألفاظه، فينفر منه الطالب، وهو أحوج إليه: ولبعضهم:

إنَّ المعلمَ والطبيبَ كلاهما

لا ينصحانِ إذا هما لم يُكرما

فاصبر لدائكَ إن أهنتَ طبيبهُ

واصبر لجهلكَ إن جفوتَ مُعلما

فعلى الطالب أن يطوع نفسه على الواقع: جميله وقبيحه، ولينه وخشنه، وضيقه وسعته، و يمرن نفسه على أخذ العلم من الناس جميعًا،

حتى تجلى بصيرته ويغزر علمه، ويشحذ فهمه ويوقد ذهنه.

وللأسف عادت حال كثير من مجتمعاتنا التعليمية في تعامل الطلاب مع المعلمين يندى له الجبين، حال يرثى لها، حال لاتبشر بخير، حال تفوح بالتمرد والعصيان والطغيان، بالاستهزاء والاحتقار، والنيل منهم؛ بل والاعتداء عليهم من قريب أو بعيد، فهل ترجو من أمة هذا موقف أبنائها من معلميهم خيرًا؟!

قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا
كادَ المُعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا
أَعَلِمتَ أَشرَفَ أَو أَجَلَّ مِنَ الَّذي
يَبني وَيُنشِئُ أَنفُسًا وَعُقولا

وطلب العلم لامحيص فيه عن الصبر، ولابد من احتمال المشاق محتسبًا:

قالت مسائلُ سحنونَ لقارئها
لن تدركَ العلمَ حتى تلعقَ الصَّبرا
لا يدرك العلم بطالٌ ولا كسلٌ
ولا ملولٌ ولا مَنْ يألفِ البشرا..

وقال صالح بن جناح:

تعلَّمْ إذا ما كنتَ ليس بعالمٍ
فما العِلمُ إلا عند أهل التعلُّمِ
تعلَّم فإن العلمَ زينٌ لأهله
ولن تستطيعَ العِلم إن لم تَعلَّمِ
تعلَّم فإن العلمَ أزينُ بالفتى
مِن الحُلَّةِ الحسناء عند التكلُّمِ
ولا خيرَ فيمَن راح ليس بعالمٍ
بصيرٍ بما يأتي ولا متعلِّمِ

ونعم ما قيل:

العلمُ مغرسُ كلِّ فخرٍ وَاحذَرْ
يَفُوتُك فَخْرُ ذَاكَ المغْرَسِ
واعلم بأنَّ العلم ليس ينالهُ
مَنْ هَمُّهُ في مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ
إلاَّ أَخُو العِلمِ الَّذِي يُعْنَى بِهِ
في حالتيه: عاريًا أو مكتسي
فاجعل لنفسكَ منهُ حظًا وافرًا
وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الرُّقَادِ وَعَبسِ
فَلَعَلَّ يَوْمًا إنْ حَضَرْتَ بِمَجْلِسٍ
كنتَ الرئيس وفخرَ ذاك المجلسِ

من تعلم تألم

رفع الله تعالى العلم منزلةً، وفخَّم أمره، ونوَّه بأهله، وعظَّم شأنه وشأن أهله، فقال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]. وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «منهومان لايشبعان: طالب علم وطالب مال»، وقال قتادة: لو كان أحد مكتفيًا من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام، إذ قال للعبد الصالح: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦].

قال الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» (ص ١٠٦): وقال بعض أهل العلم: إن فيما عاناه موسى عليه السلام من الدأب والسفر، وصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر، بعد معاناة قصده مع محل موسى من الله عزوجل، وموضعه من كرامته وشرف نبوته: دلالة على ارتفاع قدر العلم وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع، لم يلتمس منه ويؤخذ عنه، ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد بارتفاع درجة وسمو منزلة، لسبق إلى ذلك موسى. فلما أظهر الجد والاجتهاد والانزعاج عن الوطن والحرصَ على الاستفادة منه، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائب عنه: دل على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال، ولايكبر عنها».

والعلم عجيب أمره، فهو أوسع من أن يحاط به، وكلما يزداد المرء طلبًا له يزداد رغبة فيه و حرصًا عليه وإقبالًا إليه. والعلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كله، فهو يعطيك على حساب ما تعطيه. ونعم ما قيل:

(البقية على ص ٩٧)

أبو عائض القاسمي المباركفوري